

فى هجاء الزوجات

هالة فهمى

المجلس الأعلى للثقافة

فى هجاء الزوجات

دراسة فى الشعر العربى

هالة فهمى



٢٠٠٨

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فهمى ، هالة .

فى هجاء الزوجات دراسة فى الشعر العربى / هالة فهمى -

القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ط١ ، ٢٠٠٨ ،

١٨٠ ص ، ٢٠ سم

١ - الشعر العربى - تاريخ ونقد

(أ) العنوان ٨١١,٠٠٩

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٣٢٩٧
الترقيم الدولى 977-437-773-7
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦
فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

إهـداء

لم يجمعنا رحم وجمعتنا الحياة..

إلى أخ لم تلده أمى .. هو من النفس فى أقرب مكان

إلى حُزَيّن عمر

هالة فهمى

مفتتح

أكثر تراث البشرية لم يقدم لنا المرأة إلا ثرثاراً يمتد لسانها فى دائرة تحيط الكرة الأرضية كلها.. إنه حكم عام، جائراً كان أم عادلاً.. لكن الحق فيه أن كلام المرأة غالبًا يذهب جُفاء، رغم أن: (أكثر النساء شواعر فمنهن المكثرة ومنهن المقلّة، وبعض أشعارهن وصل إلينا، وكثير منه ضاع، أو اغتالته يد الزمان، بشهادة أشعر الشعراء كأبى تمام وأبى نواس، حين ذكر كل منهما أنه حفظ وروى لمجموعة من الشواعر وقد ورد فى شعر أبى نواس بعض الأبيات التى اقتبسها من شواعر عصر صدر الإسلام)[١].. وأما ما يقول الرجل فيمكث فى الأرض، لأن ما يقوله غالبا أيضًا - شعراً ونثراً - لا تملك الذاكرة البشرية إلا أن تعيه وتحفظه وتستظهره.

ومما مكث لنا وبقى وصمة عار فى جبين المرأة - بالحق أو الباطل - هجاء الأزواج لزوجاتهم .. ربما كان قلة حيلة رجالية .. ربما كان ضعفا منهم عن المواجهة ورد الصفعة بالصفعة .. ربما كان ظلما فادحا وجناية ظاهرة لكنه فى كل حال أصبح قبضة من فن الشعر قد

ترضى أُناسًا وتغضب آخرين .. قد تعبر عن الهم البشرى وتقلبات النفوس، وقد لا تعبر. لكن هذا ليس مبرراً لسقوط ظاهرة هجاء الزوجات من صفحة الدراسة النقدية على مدى تاريخها حسب علمنا. فلم تكن هناك أية معالجة مستقلة لهذه الإبداعات: البيئة التى أنتجتها، كبرى وصغرى .. دوافعها النفسية .. وقعها على من قيلت فيه .. بناؤها الفنى ووزنها بين الإبداع الشعرى .. من نبغ فيها ومن مر عليها مرورا عابراً وعلاقة النفس الشاعرة بالنفس الشتامة البذيئة وبخاصة إذا كانت هذه البذاءة منصبة على من هن لباس للرجال والرجال لباس لهن. من الدائن .. ومن المدين ؟ كيف واجهت الزوجة المهجوة عنف الهاجى، وسائل وأنماط الشتم هنا.. كيف تختلف أو تتفق مع الهجاء العام؟! تساؤلات كثيرة معلنة ومكنونة... ساقت إلى خوض تجربة صعبة بالتعرض لهذا الموضوع. فالمراجع فيه كالإبرة فى كومة قش. ونحن لا نحصر لكننا نريد أن نجمع ما نستطيع من هذه البذاءة المضيئة وهذا الجمال القبيح. الهجاء المقصود من دراستنا هذه، هجاء بالمعنى الاصطلاحى وليس الهجاء بالمعنى اللغوى المعجمى أى *القراءة*، ففى هذا المعنى يقول معجم تهذيب اللغة (قال ابن هانئ: قال أبو زيد : الهجاء : القراءة. قال : وقلت لرجل من قيس : أتقرأ من القرآن شيئا فقال : والله ما أهجو منه حرفًا : يريد : ما أقرأ منه حرفًا. قال : ورويت قصيدة فما أهجو اليوم منها بيتين : أى ما أروى)[٢]. إن ما نقصده هو ما يذكره

هذا المعجم حين يقول : (فلانة تهجو صحبة زوجها : أى تذمه وتشكو من صحبته.. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اللهم إن فلانًا هجانى فاهجُهُ اللهم مكان ما هجانى " ومعنى قوله " اهجه اللهم : أى جازه على هجائه إياى جزاء هجائه، وهذا قوله عز وجل ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[٣] وذاك هجو القول المطلق، أما ما نقصد إليه فهو معنى بعينه، إنه الهجاء الخالد، المبدع الذى يصب نار البذاءة والسخط والحمق والحقد فى آنية من الماس، هو كما قال الليث : (الوقيعة فى الأشعار)[٤] قال (ابن سيده: وهاجيته.. هجوته وهجانى. وهم يتهاجون : يهجو بعضهم بعضا، وبينهم أهجوَّةٌ وأهجيَّتهُ ومهاجاةٌ يتهاجونَ بها ؛ وقال الجعدى يهجو ليلى الأخيلية:

دعى عنكِ تَهجاءَ الرجالِ وأقبلى على أذلغىٍّ يملأُ استَكِ فيشلا

الأذلغى : منسوب إلى رجل من بنى عبادة بن عقيل، رهط ليلى الأخيلية، وكان نكاحًا، ويقال : ذكر أذلغى إذا مذى)[٥].

والظاهرة اللافتة للنظر أنه مع كثرة الغزل والتشبيب والوصف للنساء بسمينات ونحيفات، قصيرات وهيفاوات، شقراوات وسمراوات، عفيفات وشبقات.. تقل موروثات الغزل فى الزوجات أو المدح لهن بصفة عامة، على الرغم من قوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[٦] وقول النبى صلى الله عليه وسلم" (النساء شقائق الرجال لهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال درجة)[٧]. ويبدو أن الرجل يغرم بالمرأة

ما دامت خارج طوعه وملكيته فيرى كل امرأة ليست زوجًا له هى الغاية ولا غاية بعدها، ولذا يقول ابن المقفع: (اعلم أن مِن أوقع الأمور فى الدين وأنهكها للجسد وأتلفها للمال وأقتلها للعقل وأزراها للمروءة وأسرعها فى ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنساء، ومن البلاء على المغرم بهن أنه لا ينفك يأجم ما عنده وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن)(٨).

ولا يظن أحد أن نهر الغزل المتدفق فى المرأة - غير الزوجة- يتبعه نهر آخر أو حتى رافد من هجاء الزوجات، بل لا نكاد نجمع من هذا الهجو سوى قطرات شحيحة تظمئ أكثر مما تروى.. فكيف نفسر هذه الحالة؛ أن الزوجة لا هى متغزل فيها كسائر النساء، إلا من غير زوجها، ولا هى مذمومة من زوجها ما دامت غير جديرة بالمديح.. الرأى هنا قد يكون خشية الرجل من زوجته وهى خشية تاريخية بدأت منذ سقراط ولم تنته بعد بأصغر شاعر معاصر لنا : وقد يكون ستر بعض الرجال على قبح زوجاتهم ظاهرًا وجوهرًا مخافة أن يعيروا بسوء اختيارهم أو لأن هذه الزوجة هى أم الأبناء الذين سيعيرون بها إذا ما قدح فيها الزوج (الأب) الشاعر وقد يكون وازعًا من دين يمنع التشهير بمن تشارك الإنسان سكنه ولو كانت حية رقطاء تنكمش فى الشتاء وتزدهر وتنتصب إذا دفئت. من بين كل هذه المحاذير والموانع التقطنا هذه القطرات فى هجاء الزوجات وصنفناها على قدر ما تيسر لنا وما نحن بمحسوبيين

على الهاجين، كما أننا لسنا ممن لهن بسياط البذاءة من زوج شاعر وقد سعينا إلى أن نتجرد من عاطفة الانتماء الجنسى للمرأة الزوجة لننتمى لموضوعية البحث العلمي ونقف على ظاهرة ممتعة ومقلقة وتسعد أناسًا وتسوء آخرين.

هـالـة فهمـى

يناير ٢٠٠٦

الهجاء .. أهو طبيعة عربية ؟!

امتلك العربى القديم أحد أسلحة الدمار الشامل لكنه دمار للأفراد وتحديداً لكرامتهم وعزة نفوسهم وكبريائهم أنه سلاح الهجاء ولا نظننا مبالغين ونحن نراه هكذا فقد رآه العربى القديم نفسه سلاحًا لا يقاوم إيلاما وإيذاءً حتى إن أحد الأعراب تحدث عن قوم (وقال: أولئك سُلِخَت أقفاؤهم بالهجاء)(٩) ثم استطرد (ودبغت وجوههم باللؤم، لباسهم فى الدنيا الملامة وزادهم إلى الآخرة الندامة)(١٠) فلتنظر وقع الهجو على أقفية هؤلاء. إن من يصفع على قفاه ينحط إلى الدرك الأسفل من الذلة ويصير مثلا فى الحطة فما بالنا لو أن هذا القفا قد سلخ سلخًا وكأن الهجاء ماء النار صبت عليه. هذه هى رؤية العربى التى تتواصل بما يترتب على الهجاء وما يتصل به فبعد أن وقع الهجاء على القوم هذا الوقع، إذا بالوجوه دبغت باللؤم بما يعنى الالتصاق الدائم والمتعمد لهذا اللؤم وإذا بالدنيا كلها تلومه، تقرعه، توبخه ثم يصحبهم هذا الحال إلى الآخرة نادمين. فأى ضياع يمكن أن يصيب الأنسان مترتبا على الهجاء.

فلم يفعل العربى بنفسه هذه الفعلة الشنعاء التى تصمه دنيا وآخرة ؟! إنها سمات العربى النافر من كل قيد المتمرد على كل سلطة ولو سلطة الذات، الطامع فى كل مجد، الطامح إلى كل سلطة وإذا كانت هذه طبيعة كل عربى فرد، فإن العلاقة الدائمة لا بد أن تكون التصادم الدائم والغلبة للسيف البتار واللسان البتار كذلك، وهنا تبرز بطولة فنون القول والهجاء بخاصة "فإذا اهتاج أسرع إلى السيف واحتكم إليه وبادر شاعره إلى اللسان فسلطه بشعر فيه الحماسة وفيه الهجاء المقذع، يصور العدو هزيلا والمهاجم ضعيفا ويبعث فى نسبه الضعف، وفى خلقه الصِّغار، وفى شكله الزراية"(١١).

ويبدو للمتابع لهذه القضية أن العربى القديم مدفوع إلى الهجاء دفعًا (وقد سأل رجل من ثقيف محمد بن مناذر: "ما بال هجائك أكثر من مدحك؟ قال: ذلك مما أغرانى به قومك واضطرنى إليه لؤمك. وقال أبو عمرو بن العلاء : خذه لجرير : إنك لعفيف الفرج كثير الصدقة فلم تسب الناس ؟! قال : يبدأونى ثم لا أغفر لهم"(١٢).

إن العربى ليلقى بنفسه إلى التهلكة أو يكاد، فمن من العقلاء ينازل ثوراً؟ مَنْ من المتدبرين يهاجم الحكام والملوك وبيدهم حينذاك انتزاع الروح وسلخ الجلود، هذا ما وقع فعلاً بينما نرى بعضهم يتصدى ببذىء القول لزعماء العرب وحكامهم وخلفائهم، فيومًا ما (أتى عبد الله بن فَضَالَة بن شَرِيك الوَالبى ثم الأسدى من بنى أسد بن خُزيمة.. عبد الله

بن الزُبير، فقال له: نَفدت نفقتى ونقبت راحلتى. قال : أحضرها، فأحضرها. فقال: أقبل بها، أدبر بها، ففعل. فقال ارقَعْها بسِبتٍ واخصفها بُهلب وأنجد بها يبرد خفها وسر البردين تصح. فقال ابن فضالة : إنى أتيتك مُستحملا ولم آتك مستوصفا فلعن الله ناقة حملتنى إليك ! قال الزبير : إن وراكبها.

فانصرف عنه ابن فضالة وقال :

أقول لغلمتى شُدُّوا رِكابى	أُجاوِز بَطْنَ مكةَ فى سَوَادِ
فمالى حين أَقْطع ذات عِرْقٍ	إلى ابن الكاهِلِّية من معاد
سيُبْعِدُ بَيننا نَصُّ المَطايا	وتَعليقُ الأداوَىَ والمَزَادِ
وكلُّ مُعَبَّدٍ قد أعْلمتْه	مَنَاسِمُهن طُلاَّعَ النجادِ
أرَى الحاجاتِ عند أبى خُبَيْبٍ	نُكِدْنَ ولا أُمَيَّة بالبلادِ
من الأعياض أوَ من آل حربٍ	أغرَّ كغُرَّة الفرس الجواد(١٣)

إنها محاجة بين طرفين غير متكافئين أحدهما حاكم آمر ناه فى الحجاز يناوئ بنى أمية على الخلافة والآخر سلاحه وبضاعته الشعر، لا توازن فى القوة ولا تساوى فى الرءوس وعلى الرغم من ذلك يلعن الناقة التى حملته إلى عبد الله بن الزبير ولم يغمد عبد الله سيفه فى عنقه بل رد الشتم بالشتم فقط، ثم إن ابن فضالة زاد عليه بعد أن انصرف بمثل

هذه الأبيات التى تُشهر به وبأمه وعيَّره بها، إنه بالأحكام المنطقية خطر مستطير كان يمكن أن يحدق بابن فضالة.. فهل ارتدع !؟

لم يرتدع كذلك غيره.. فها هو ذا أبو قطيفة يهجو الخليفة عبد الملك بن مروان بما هو أقذع . يقول مفتخراً بنفسه ذاماً عبد الملك:

أنا ابن مُعيْطٍ حين أُنْمَى | لأكرَم ضِئضِئ وأعز جِيلِ
وأُنْمَى للعقائل من قُصَىّ | ومَخزومُ. فما أنا بالضَئيلِ
وأرْوَى من كُرِيْزٍ قد نمتنى | وأرْوَى الخيرِ بنتُ أبى عَقيلِ
كِلاَ الحيَّيْن من هذا وهذا | لعمُر أبيك فى الشرف الطويلِ
فَعدِّدْ مثلهنّ أبا ذُبَابٍ | لِيعْلَمَ ما تقولُ ذوو العقولِ
فما الزَّرْقاءُ لى أمّاً فأخزَى | ولا لىَ فى الأزارِقِ مِنْ سبيلِ(١٤)

وكأننا بأبى قطيفة يضع نفسه فى قعر بئر عميقة مع سبق الإصرار فإذا به يواصل شتمه لعبد الملك حين علم أن عبد الملك ينتقصه، فقال:

نُبِّئتُ أن ابن العَملَّس عابنى | ومن ذا من الناس البَرىء المسلَّمُ
من أنتمُ مَنْ أنتم خبرونا من أنتم | فقد جَعُلتْ أشياء تبدو وتُكْتمَ !

فبلغ ذلك عبد الملك فقال: "ما ظننت أنّا نُجْهَلُ، والله لولا رعايتى لحرمته لألحقته بما يعلم، ولقطَّعْتُ جلده بالسياط"(١٥).

هل من استفزاز يرقى إلى حد أن يسأل شاعر؛ واحد من الرعية عبد الملك بن مروان؛ من أنتم ؟! وهم من يعرفهم العجم قبل العرب !! لقد كانت الإجابة المنتظرة هى تقطيع جلده بالسياط، لكن الرجل القوى لم يفعل وإن آذاه الشعر كما لم تؤذ السياط الجلد فكأن قوة خفية تدفع أبا قطيفة للهجاء وقوة خفية أخرى تمنع عبد الملك من الانتقام . إن شئت فقل إنها قوة العدل أو الحلم أو الحكمة وما أعظم حكمة عبد الملك وأوفر حلمه وإلا لما احتمل(١٦).

للمرأة صوت وإذا كان لها صوت " فى صغائر الأمور وكبائرها فكيف لا يكون لها صوت فى فن كهذا ؟ ! فها هى ذى "بكارة الهلالية" (وكانت من نساء العرب الموصوفات بالشجاعة والإقدام والفصاحة والشعر والنثر والخطابة، استأذنت على معاوية فأذن لها وهو يومئذ بالمدينة فدخلت عليه وكانت امرأة قد أسنت وعشى بصرها وضعفت قوتها، ترعش بين خادمين لها فسلمت وجلست، فرد عليها معاوية السلام، وقال : كيف أنت يا خالة ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين. قال: غيرك الدهر. قالت : كذلك هو ذو غير من عاش كبر، ومن مات قبر. قال عمرو بن العاص هى والله القائلة يا أمير المؤمنين:

يا زيد دونك فاستشر من دارنا   سيفًا حسامًا فى التراب دفينا
قد كنت أذخره لكل عظيمة   فاليوم أبرزه الزمان مصونا

قال مروان: وهى القائلة يا أمير المؤمنين:

أترى ابن هند للخلافة مالكًا   هيهات ذاك وإن أراد بعيد
مَنّتك نفسك في الخلاء ضلالة   أغراك عمرو للشقا وسعيد
فارجع بأنكد طائر بنجوسها   لاقت عليا أسعد وسعود

وقال سعيد بن العاص : هى والله القائلة :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى   فوق المنابر من أمية خاطبا
فالله أخر مدتى فتطاولت   حتى رأيت من الزمان عجائبا
فى كل يوم لا يزال خطيبهم   بين الجموع لآل أحمد عائبا

ثم سكتوا فقالت: يا معاوية كلامك أعشى بصرى وقصر حجتى. أنا والله قائلة ما قالوا، وما خفى عليك منى أكثر. فضحك وقال: ليس يمنعنا ذلك من برِّك، اذكرى حاجتك. فقالت: الآن فلا)(١٧).

وكانت بكارة شاعرة فصيحة، بليغة، منطقية، متكلمة، جزلة الألفاظ، صادقة التعبير فى أشعارها.. تتدفق القوة والعنف من أبياتها كما اتصفت المرأة العربية حين تدافع عن هدف أو تُخلص لشىء فهى

لا تتنكر لقول ولا تُكذب فعلاً، وقد جاء رفض بكارة لعطاء معاوية من وجهة نظرنا شكلاً من أشكال القوة . فهى لم تخف منه حين هجت بنى أمية فى أبياتها وحرضت المقاتلين فى معركة صفين على قتال معاوية . تحثهم فى أشعارها على حمل السيوف، وها هى لم تنكر قولها طمعًا فى عطايا ، ولم ترهبهم حينما ردد الحاضرون على مسامع معاوية ما قالته وهى فى مجد الشباب وقوته .. وعندما قابل معاوية هجاءها بالضحك لم يكن موقفه هذا منها لكونها امرأة، لا يصح البطش بها وإلا عير بفعلته تلك وإنما كان إعجابًا بقوتها وفصاحتها . فها هى تقول له مؤكدة أنها من قالت هذا الهجاء ، بل هناك من القول ما لا يعلمه ولم يردده رجاله ، فقابل معاوية قولها هذا بعفوه وذكائه ودهائه الذى اشتهر بها، بل سألها أن تطلب ما تريد ، لكنها رفضت فى حسم وأنفة.

هذا هو موقف جداتنا من الشاعرات العربيات، تناطح الملوك والأمراء دون خوف أو قهر .. ولا تقف قوتها إلى حد رد الحجة بالحجة بل أيضًا هى تهجو وتذم بأبياتٍ قد تدفع بالمهجو إلى فقد السيطرة وربما ينفلت منه زمام نفسه ويأمر بقطع رقبتها أو بتر لسانها الهاجى فهى هنا لا تهجو زوجًا أو راعى أغنام بسيطًا إنما تقدح وتهزأ من بنى أمية ولهم ما لهم من السطوة والقوة والبطش .. وكم حصدوا رقابًا تطاولت عليهم .. ولعل هذا يدلل على مكانة المرأة العربية واحترامها ، وقوة بيانها وقدرتها على الهجاء والنقد لمثالب وعيوب عدوها ، وصياغة وجهة

النظر أو غيظها في قصائد هجاء ومن تملك القدرة على الذم تمتلك القدرة على غيره كما ملكت زمام باقي أغراض الشعر الأخرى كالحس القومي، والرثاء، الشوق، والحنين، والحكمة، وأشعار الطفولة، والاستسقاء، وأشعار الترقيص التي كانت تتغنى فيها للأطفال وتحكي عن بطولات وأمجاد أقوامهم.

وقد أضفنا الهجاء لأنه جنس من أجناس الشعر العربي وقتها وقد تفوقت فيه المرأة الشاعرة وإن لم تستعمله للتربح كالشعراء الرجال، ولكنها كانت تعبر عن مشاعرها وتعكس واقعًا اجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا للمرأة وكانت صادقة في ذلك والدليل أننا لم نسمع عن شاعرة ولجت قصور الملوك لتتكسب من شعرها، إذن هي تعبر عن شعورها وانفعالها الخاص بها وببيئتها، عكس الشاعر الذي قد يهجو مقابل عطية ، أو حاجة له.

نعود فنقول إننا لو اعتبرنا أن هجاء أبي قطيفة للمأمون كان لمنع الأخير عطاء كان يحلم به الشاعر ولم يحصل عليه، وهجاء بكارة الهلالية لمعاوية وبني أمية هو موقف عداء وكراهية .. فهذا أيضًا موقف مبرر إذ أن لكل حاكم مؤيديه ورافضيه .. ولكن أن يصل الحد لأن يهجو الشاعر أقرب الناس إليه، من حملته في رحمها وكانت لها قداسة في كل دين وملة، بل في كل زمان ومكان ، فها هو الحطيئة أو ابن ميادة يمتد هجاؤه ليطول أمه، بل هو يؤهلها لهجاء الآخرين ردًا على هجائه لهم ، ليقينه

من طبيعته الشاذة ونفسه المتمردة فقد كان ابن ميادة عريضًا طالبًا مهاجاة الشعراء ومسبَّة الناس، وكان يضرب بيده على جنب أمه ويقول :

اِعرنزمى مَّياد للقوافى   واستسمعيهنَّ ولا تخافى

ستجدين ابنك ذا قِذَاف

أى أنى سأهجو الناس فيهجونك، فاستعدى لذلك).[١٨]

والحطيئة لم يكتف بتعريفها لهجاء الآخرين لها ردًا على هجائه وهو فحل من فحول الشعراء وفصائحهم ، أدرك الجاهلية والإسلام فأسلم ثم ارتد ، ولم يَسلم أحد منه يقول فى أمه:

جزاكِ اللهُ شراً من عجوزٍ   ولقّاكِ العُقُوقَ من البنينِ

فقد مُلِّكت أمرَ بنيك حتى   تركتِهِمُ أدقَّ من الطَّحينِ

فإن تُخْلَيْ وأمَرك لا تصولى   بمشّتدٍ قُواه ولا مَتينِ

لسانُك مبردٌ لا خيرَ فيه   ودرُّكِ درُّ جازبةٍ دَهينِ .

وقال يهجو أمه أيضًا :

تنحَّى فاجلسى منى بعيدًا   أراح الله منكِ العالمينا

أغِربالاً إذا استودعت سراً   وكانونًا على المتحدثينا

حياتِك ما علمتُ حياةُ سوءٍ   وموتُكِ قد يسرُّ الصالحينا[١٩]

هو لم يبال بوصف أمه بالنميمة وبأنها ثقيلة الظل على الناس بل هى أيضًا قليلة اللبن لا خير فيها، ولم تقف بذاعته عند هذا الحد ليشهر بأمه ، فها هو يهجو ذاته فى يوم هاجت نفسه الأمارة بالسوء إلى الهجو ولم يمر به إنسان يصب عليه هذه البذاءة وهذا الشر:

(كان الحطيئة بذيئًا هجاء، فالتمس ذات يوم إنسانًا يهجوه فلم يجد، وضاق عليه ذلك فأنشأ يقول:

أبت شفتاى اليوم إلا تكلمًا بشرٍّ فما أدرى لمن أنا قائلُهْ

وجعل يدور هذا البيت فى أشداقه ولا يرى إنسانًا، إذ اطَّلع فى حوض ماء فرأى وجهه، فقال:

أرىٰ لى وجهًا شوَّه الله خَلْقَهُ فُقبِّح من وجهٍ وقُبِّح حَامِلُه(٢٠)

كان العربى معتزًا بنفسه ونسبه وقبيلته وقد تقوم الحروب دفاعًا عن هذا الشرف إذا تطاولت إليه الألسنة هجوًا وذمًا ، ولذا كان بسلاح الهجاء فى ذلك الوقت أفتك من القنبلة النووية فى العصور الحديثة لانتقال الأشعار بين القبائل ومعايرتهم المهجو بها وكانوا أهل بلاغة وفصاحة وللكلمة فعل كحد السيف يقطع ويبتر خصوصًا إذا كانت تندد بمكارمهم وأخلاقهم ونسائهم ، وقد قلَّت هذه الحدة قليلاً فى العصر الإسلامى لأن الإسلام هذب الأخلاق وردع المبارزات القولية فى الذم والهجاء ، بل أشاع روحًا جديدة من التسامح والعفو . وها هو يعود فى

العصر العباسي والأندلسي بعد أن شاع الترف والبذخ والنعيم وتفشت الدسائس والنميمة. لم يتوقف استشراء فنون الهجاء في أي عصر من عصور الأدب العربي لكن البعض يرى أنه (أخذ طابعًا آخر فقد اتسع هذا الفن تأثرًا بالترف والنعيم، وضعف النخوة القبلية، والشهامة العربية وكانت الإماء رائدات الفحش والمجون والتحلل مثل عنان، وقمر، وعريب، وأخذت الأندلس هذا الطابع واصطبغت بهذه الصبغة وبخاصة في أواخر أيام الدولة الأندلسية وتفرق الأندلسيين أيدى سبأ.

ومن نماذج الهجاء في هذا العصر قول ولادة بنت المستكفي تهجو ابن زيدون :

ولقبت المسدس وهو نعت   تفارقك الحياة ولا تفارق

فلوطـــي ومأبـــون وزان   وديوث وقواد وسارق[٢١]

وقد تستفز المرأة بالهجاء ، مما يثير قريحتها بهجاء مضاد قد يكون أبشع مما قيل فيها ، والمرأة لا تنسى الإساءة أفلا تردها إذن؟

(لما هجا الأعمى المخزومي نزهون الغرناطية بقوله:

على وجه نزهون من الحسن مسحة   وتحت الثياب العار لو كان باديا

قواصد نزهون تـوارك غيـــرها   ومن قصد البحر استقل السواقيا

فأجابته بقولها :

إن كان ما قلت حقا   من نقض عهد كريم

فصار ذكرى ذميمًا   يعزى إلى كل لوم

وصرت أقبح شيء   على صورة المخزومى(٢٢)

وقد لا يكون ذم المرأة باللفظ فقط وإنما قد تشعر المرأة بالإهانة إذا وقع تصرف لا يروق لها فتشعر بطعنة فى أنوثتها.. مثلاً كما حدث مع أم العلا حينما خطبها رجل أشيب تقول :

الشيب لا يخدع فيه الصبا   بحيلة فاسمع إلى نصحى

فلا تكن أخدع من فى الورى   تبيت فى الجهل كما تضحى(٢٣)

هى هنا لم ترفضه وتكتفى بذلك لكنها اعتبرت مجرد خطبته لها نوعًا من الخداع والجهل فكيف لأشيب مثله صبية مثلها، ولعل الهجاء فى هذا العصر قد سار على سنن الجاهلية من حيث الذم الحسى وإن قل عند المرأة وبخاصة المرأة المسلمة.. فهذا نوع من الفنون تأباه طبيعة المرأة التى تميل إلى الرقة والدعة بالإضافة لما أحدثه الإسلام فى النفس بتعاليمه من تهذب يتفق والنفس السوية غير المتمردة.. ومع هذا فقد قالته قلة قليلة من الشاعرات ولعل السبب أن إبداع المرأة الذى قيل شفاهى لم يُسجل كما حظى إبداع الرجل بالتسجيل ولهذا تناثر قولها فى الهواء كانفعالاتها.

(ونلاحظ أن الشاعرة العربية قد شاركت فى باب الهجاء ولكن فى حدود ضيقة ولعل ذلك يرجع أيضاً إلى طبيعة المرأة وما جبلت عليه من رقة ونعومة ورهافة حس وذوق، الأمر الذى يبعدها عن الدخول فى المصادمات والمشاحنات تلك الأمور التى تأنفها طبيعتها، ويمجها ذوقها الرفيع)(٢٤). ولعلنا نزعم بأن المرأة وإن كانت قليلة الهجو فقد كانت ملهمة له، تحرض عليه الشعراء بأفعالها أحيانًا ، أو بردها الطعنة بالطعنة ، إلا أنها فى معظم الأحيان مستقبل لا مرسل، ولعلنا نخلص إلى أن الهجاء كان له مكانة لا تقل عن النسيب أو التشبيب بل هو قرين للفخر، فإذا ما أفتخر الشاعر بنفسه وقبيلته كان عليه أن يحط من قدر غريمه أو عدوه وقد يكون الهجاء لأسباب شخصية فردية، وغالبًا ما يكون السبب اقتصادياً أو هجاء قبيلة وفخراً بأخرى أو هجاء قومياً مثل هجاء العرب للفرس أو هجاء الشعوبيين الذين كانوا يشعرون بعنصرية العرب عليهم، فكانوا يفخرون عليهم ويهجونهم، أو هجاءً مذهبيًا حيث كان الشاعر يسلط من لدن دولة بعينها أو خليفة لهجاء معارضيه.. وقد رفض جرير فى موقف مشابه هجو آل البيت فى عَلِيٍّ بناء على رغبة الخليفة الأموى وأرشده إلى الأخطل لأنه كان نصرانياً.

هناك تفسير آخر مؤيد لرأينا يسوقه د. محمد بدر معبدى فى كتابه "أشعار النساء فى الجاهلية والإسلام" يقول: "ومرد هذا الخلق عند أكثر الباحثين إلى طبيعة الأرض من فقر وإجداب وضيق الأفق بالسكان،

فينتعش البؤس وتشتد الحاجة، وتخمد الشجاعة والوفاء والكرم، ويذم الجبن والخيانة والبخل وتنتحل الأنساب، ويدور الشاعر الهاجى حول هذه الموضوعات ليصيب مقتلاً من خصومه ويسرع إلى القوافى والصور فيصب غضبه على الولاة والحكام والأمراء والملوك، ويتناول المذاهب والأديان والعقائد وينتصر لفريق على فريق، وكأنه فى حزب سياسى، أو فى فرقة دينية أو فى دعوة سياسية واجتماعية، كصحافة اليوم. وكان ذلك كله ديوان فى الهجاء كبير، برع فيه الشعراء فى القول والبلاغة والفصاحة، فعرضوا للأنساب والأحساب والأعراض والأخلاق فصوروها فى خيال صادق أو كاذب لا يبالون بما يعترض سبيلهم من سمعة تتحطم أو كرامة تتهشم أو أرومة تهدم، أو نسب ينهار أو عرض يفضح.

فقد كان الهدف النصر على الخصم ليس غير، يتناولونه من نواحيه فيبرزونه فى شكل مخز، ويضعونه موضع السخرية والحطة والضعة، فإذا بلغوا من ذلك ما يريدون انتصر هجاؤهم وظهروا على عدوهم واشتهروا بين الأقوام وارتفعوا إلى ذروة الأدب)[٢٥]

ثم يضيف فى موضع آخر رأى للدكتور محمد سامى الدهان فى كتابه-"الهجاء"[٢٦] يقول: "والمهم أن الهجاء فن من فنون الأدب الرفيعة فى الأدب العربى قد يعين على تصوير الحياة عند الأفراد وفى المجتمع وقد يساعد على تأريخ الحياة العربية حين يصدق الشاعر، ويحذر المؤرخ

فى بحثه حين يريد أن يعلم ما كان العربى يستحسن ويستقبح، وما كان يذم ويقدح، وأن يتبين ما كان العرب والمسلمون يجدونه من مثالب ومآخذ عند الشعب وعند الحكام، وهو على ذلك يحوى ألواحًا من الصور تضاف إلى الآداب الإنسانية فى القديم والحديث، فتُغنى متحف الهجاء فى الأدب العالمى، وتكسبه روعة لا تقل عن روعة الآداب الأخرى إن لم تزد عليها وتبزها وتسبقها إلى ميادين النبوغ والعبقرية والإلهام"(٢٧)

رؤية شاملة لهذا الواقع الأدبى والحياتى المتلاطم توقفنا على مؤشرات عدة منها: أن الهجاء عنصر حاضر فى الحروب والخصومات الفردية والعلاقات الزوجية وعلاقة الابن بالأم وعلاقة الحاكم بالمحكوم وفى حالات الزواج والطلاق والحب.. فهل من حياة أخرى غير هذه؟ إنها حلقة تحيط بالإنسان منذ النوم حتى اليقظة ومنذ الميلاد حتى الرحيل فكأن هذا الهجاء ركن من أركان الحياة ولا نقول إنه الحياة نفسها بالنسبة للعربى، فى البوادى والحضر، فى الجاهلية والإسلام، فى الشرق والغرب بين النساء والرجال، أى أنه يمتد فى الزمان والمكان وفى سائر مستويات العقل العربى ومساحات التفكير، فهل من المستغرب أن نتساءل عما إذا كان الهجاء جزءًا من الطبيعة العربية ؟!

ربما بُنى سيل هجاء الزوجات على مفارقة فحواها أن الزوجة – نظرياً – لباس لزوجها وهى سكن له إذا حاصرته أعاصير الحياة، وسلمُ له إذا حاربته الدنيا.. لكن الواقع المعيش قد يصدم الزوج الشاعر بغير هذه المفاهيم النظرية التى حبذها العرف وحض عليها الدين فتأتى صدمة الزوج الشاعر كمن يحلم بالجنة فيقذف فى النار.

ولذا فقد شاعت نصائح التحذير من خبث الزوجة وسوء منقلبها وفى رواية لمحمد بن عبد السلام الخُشنى قال: "إياك وكل امرأة مذكرة منكرة، حديدة العرقوب، بادية الظنبوب، منتفخة الوريد، كلامها وعيد، وصوتها شديد، تدفن الحسنات، وتُفشى السيئات، تُعين الزمان على بعلها ولا تُعين بعلها على الزمان، ليس فى قلبها له رأفة، ولا عليها منه مخافة، إن دخل خرجت، وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت، وإن بكى ضحكت، وإن طلقها كانت حريبته، وإن أمسكها كانت مصيبته، سفعاء ورهاء، كثيرة الدعاء، قليلة الإرعاء، تأكل لمّا وتوسع ذما، صخوب غضوب، بذية دنية، ليس تُطفأ نارها، ولا يهدأ إعصارها، إذا حدثّت تشير

بالأصابع، وتبكى فى المجامع، باديةٌ فى حجابها، نياحة على بابها، تبكى وهى ظالمة وتشهد وهى غائبة، قد ذل لسانها بالزور وسال دمها بالفجور"[٢٩] .

لم يترك محمد بن عبد السلام الخُشنى صفة من صفات الخسة والدناءة والقبح إلا أوردها فى هذة الزوجة المتخيلة، حتى إننا كرهناها وهى معدومة الوجود تقريبًا أو أن وجودها ذهنى فقط، فهى مصحوبة بكل احتقار وقبح ودناءة، منذ منذ أن يلتقى بها الرجل الزوج حتى يتزوجها ثم يعيش معها وتعيش معه، ثم تنجب وتمتد منها هذه الصفات إلى أبنائها، فيبدو الابن مهزولا فى زمن الصراع والمجالدة حينذاك. ونصيحة الخُشنى هذه تحمل وراءها تحريضًا على العزوبية واتقاء الجحيم الفاغر فاه لكل من يقع فيه – أى الزواج – لأنها قارعة الدنيا والآخرة.

هناك رأى آخر يقول: "وراء كل مصيبة كبرى امرأة.. حكمة من تأليفى !! تذكرنا بمقولة: وراء كل عظيم امرأة.. وكلتا الحكمتين سهلة السياق، قابلة للتصديق والتكذيب معًا، فوقائع الحياة تحمل للمقولتين التأييد والنفى، لكن مالا ينفى هو وجود خيط سميك بينهما.. فقد تكون وراء الرجل العظيم امرأة فعلا، تدفعه إلى المصائب والجرائم الكبرى فى تاريخ البشرية"[٣٠] .

والكاتب هنا لم يكتف بأن وراء كل مصيبة امرأة ولكنه حددها بأنها لا بد أن تكون كبرى ، وهى من نوع الجرائم الكبرى فى تاريخ البشرية، وكأنه لا يليق بالمرأة إلا المصائب الكبرى. والحقيقة أن إطلاقها كحكمة هو المصيبة الكبرى، فمعنى هذا أنه لا توجد امرأة واحدة صالحة لدفع رجل للرقي والعظمة، ومن المرجح أن المقصود أن المرأة هنا هى الزوجة على وجه التحديد. ويبدو أن هناك آراء أخرى تدعم ذلك القول، فقد قال الأصمعى : "حدثنى ابن أبى الزناد عن عُروة بن الزبير قال: ما رفع أحد نفسه بعد الإيمان بالله بمثل منكح صدق، ولا وضع أحد نفسه بعد الكفر بالله بمثل منكح سوء ثم قال: لعن الله فلانة، ألِفت بنى فلان بيضا طوالاً فقلبتهم سودا قصارا"(٣١) .

لا يقع إنسان من إنسان موقع المرأة من زوجها فهى قد ترفعه بعد الإيمان بالله كما يرى عُروة بن الزبير كما لم يُرفع أحد، وقد تحطه ولا أدنى منه إلا الكافر نفسه، هى نظرة ترتبط بالقداسة والعقيدة، لا العلاقة الجسدية والنفسية التى تحدث عنها الخُشنى، لكن ابن الزبير يميل فى رؤيته إلى شىء من الخفة والروح " الكاريكاتيرية" حين يذكر أن المرأة الزوجة قد تمسك زوجها وأهليه فإذا بياضهم بسواد وطولهم قصر.. فهل من مهرب فى هذه العلاقة؟ ربما لو دققنا فى مفاهيمنا الحديثة عن هذه العلاقة بين الرجل وزوجته لوجدنا شيئا من الصحة - وإن كان شيئا قليلا - حينما يقال أن المرأة "تصبغ" على زوجها و"يصبغ" عليها بعد

زمن من العشرة الطويلة أى أن ملامحهما تتقارب، وإن كنا لا نستطيع إثبات ذلك علميا وقد يعود ذلك الشبه إلى البداية عند الأختيار فكلا الزوجين يختار زوجه من الأشباه التى لها علاقة بشبه يرغبه وغالبا ما يكون هذا الشبه يلائم أهله ومع مرور الوقت يظهر نوع من الشبه الإجمالى للملامح.. أما الملامح التفصيلية قد تختلف، ويأتى هذا الشبه من توافق الفكر والسلوك الذى يضفى روحًا واحدة للزوجين، هى علاقة إذن بالمفاهيم المثالية ينبغى ألا تشوبها شائبة ونرى الوجه الشعرى الأمثل لها فى هذه الأبيات:

(بعث امرؤ لأبى عزيزة مرة   برسالة يُبكى ويُضحك ما بها
فيها يقول أريد منك صبية   حسناء معروف لديكم أصلها
وأديبة ولطيفة وعفيفة   وحليمة ورزينة فى عقلها
قد أحرزت فى العلم غير شهادة   وعلى النسا طراً تفوق بفضلها
وتكون أيضًا ذات مال وافر   تعطيه من بعد الزواج لبعلها
وأريد منها أن تكون مطيعة   أمرى فتتبعنى وتهجر أهلها) (٣٢)

وتبدو المفارقة أو انهيار الحلم فى رد أبى عزيزة على هذا الخاطب الواهم:

(وافى كتابك سيدى فقرأتـــه وعرفت هاتيك المطالب كلها
لو كنت أقدر أن أرى من تشتهى طلقت أم عزيزة وأخذتها)[٢٣]

فما دواعى الحلم المحبط فى المرأة وأسباب هذه الهواجس من الزوجة؟!! أهى كائن خارج السيطرة ؟ أهى إنسان لا خلاق له ؟! أهى حانثة فى قسمها وطبعها ؟! أهى فاقدة للوفاء بفطرتها ؟! أهى مدفوعة إلى الغريزة فوق أى دافع وقبل أى دافع ؟! لنرى نموذجًا أعلى أخلاقيا واجتماعيا ودينيا من النساء متجسدا فى الشريفة بنت الأشراف وسليلة بيت النبوة فاطمة بنت الحسين، فقد روى الزبير بن بكار قال: (كان الحسن بن الحسن خطب إلى عمه الحسين بن على، فقال له الحسين: يا ابن أخى، قد انتظرت هذا منك انطلق معى.فخرج به حتى أدخله منزله، ثم أخرج إليه ابنتيه فاطمة وسكينة رضى الله عنهما، فقال : اختر. فاختار فاطمة فزوجه إياها، فكان يقال : فلما حضرت الحسن الوفاة، قال لفاطمة: إنك امرأة مرغوبٌ فيك،فكأنى بعبد الله بن عمرو بن عثمان، إذا خُرج بجنازتى قد جاء على فرس مرجّلا جبينه لابسا حلته يسير فى جانب الناس يتعرض لك، فانكحى من شئت سواه، فإنى لا أدع من الدنيا ورائى همًا غيرك. فقالت له : آمن على ذلك. وأثلجته بإيمان من العتق والصدقة لا تتزوجه. ومات الحسن بن الحسن، وخُرج بجنازته، فوافاه عبد الله بن عمرو بن عثمان فى الحال التى وصَف الحسنُ، وكان يقال لعبد الله بن عمرو بن عثمان: المُطَرَّفَ، من حسنه، فنظر إلى فاطمة

حـاسرة تضرب وجهـها ، فأرسل إليـها : إن لنا فى وجهك حاجة فأرفقى به. فاسترخَتْ يداها ، وعُرف ذلك فيها ، وخمرت وجهها ، فلما حلّت، أرسل إليها فخطبها، فقالت : كيف يمينى التى حلفتُ بها ؟ قال : فأرسل إليها مكان كل مملوك مملوكين، ومكان كل شئ فعوضها مِنْ يمينها، فنكحته،فولدت له محمدا الديباج والقاسم)[٣٤]

لن نتوقف عند الحبكة القصصية لهذه الواقعة التاريخية من مقدمة وتشويق وعقدة وحل وحدث وتطور يجرى عبر شخوص بعينها تبدو ملامحها الظاهرة والباطنة إلى حد كبير .. لكننا نتوقف عند مثالب الزوجة التى لايتوقعها أحد فيها خاصة أنها ليست ككل الزوجات، لكن الطريف أن الزوج نفسه "الحسن". كأنه كان يقرأ الغيب: غيب نفسها، فنهاها عن ابن عثمان ولم تنته، فكأنه به أمرها، وحذرها من عُجبه فانخدعت به، ثم إنها غير هذا راحت تلطم وجهها كاشفة إياه للمتأملين وكانت فى لحظة اللطم نفسها "على خط ساخن مع الزوج القادم" ولما يبرد جسد الزوج الراحل بعد، وليس هنا للقسم شأن ولا خوف لديها من الحنث فى اليمين. أبعد هذا جميعا لو عاد الحسن بن الحسن إلى الحياة أما كان أول فعله فيها أن يهجو هذه الزوج كأضعف الإيمان، لكن بعض الشعراء كفوا الشريف الراحل هذا الهم وهو يقول : "إنى لا أدع من الدنيا ورائى همًا غيرك" فهجا هؤلاء الشعراء زوجاتهم نيابة عن الحسن ونيابة عن كل رجل كالحسن وهم مدفوعون جميعا بالثقة فى عدالة قضيتهم وفى خسة زوجاتهم !!

افتراءات رجالية

كيف يرى الرجل المرأة: الزوجة، ما الذى يبغيه منها، لا أظن واحدا من العالمين واصلا لإجابة ناجعة عن هذا التساؤل الحائر، فالمرأة هى الشيطان يُستعاذ بالله منه :

(إن النساء شياطين خلقن لنا   أعوذ بالله من شر الشياطين)(٣٥)

والمرأة فى الوقت نفسه نعمة الحياة الدنيا؛ تعطى ويفيض عطاؤها لمن يرغب، وكأنها زهرة فيحاء يمتعهم ريحها ورحيقها ولا ينفد :

(إن النساء رياحين خلقن لنا   وكلنا يشتهى شم الرياحين)(٣٦)

وإذا كانت المرأة عطرا وريحانا، ونعمة فإنها قد تتحول إلى عطن وعفن وجحيم؛ إذا هى استعصت على الرجل ورفضت الزواج به فقد (خطب ابن عَبدل امرأة من همدان يُقال لها أم رياح، فلم تتزوجه، فقال: أما والله لأفضحنك ولأعيّرنَّكِ فقال :

فلا خير فى الفتيان بعد ابن عَبْدلٍ   ولا فى الزَّوَانى بعد أمِّ رِياحِ

فأيرى بحمد الله ماضٍ مجرِّبٌ   وأم رياحٍ عُرضةٌ لنكاحى)(٣٧)

إنها زانيةٌ لمجرد امتناعها عليه، فماذا لو أنها قبلت الزواج به؟!

لاشك فى أنها ستكون واقعة تحت طائلة افتراءاته، وبين مخالب ظلمه فى أحيان كثيرة، وسوف ينحط " ثمنها " إلى قلامة ظفر أو أدنىَ من هذا .. فقد (تزوج أعرابى امرأة فآذته، وافتدى منها بحمار وجبة، فقدم عليه ابن عم له من البادية، فسأله عنها، فقال :

خطبتُ إلى الشيطان للحين بنته   فأدخلتها من شقوتى فى حباليا

فأنقذنى منها حمـــارى وجُبتى   جَزى الله خيراً جبتى وحماريا)(٣٨)

فليس أدنى من زوجة ولا أرخص من حمار وجبة ثمنا لها !! حتى لو حملت عيوب الدنيا كلها فإنها فوق الحمار وأرقى منه – وكأنى اسمع لسان حال الرجل – يقول:مع الاعتذار لكل الحمير !!

وربما عاقب الرجل زوجته على غير ذنب منها، بل هو من يُسأل.. فتحديد جنسَ الطفل لا يعود للأم، إنه شأن الرجل .. وهذا ما أكده العلم حديثا، وأيقنت المرأة العربية قديما به .. فقد (ذكرعند أعرابى الأولاد والانتفاع بهم، فقال : زوجونى امرأة أُلدها ولدا أعلمه الفروسية حتى يحوز الرِّهان، والنزع عن القوس حتى يصيب الحَدق، ورواية الشعر حتى يُفحِم الفحول. فزوجوه امرأة فولدت له ابنةٌ فقال فيها:

قد كنت أرجو أن تكونى ذكرا   فشقك الرحمن شقا منكرا

شـــقًّا أبى الله له أن يُجـــبرا   مثل الذى لأُمهــا أو أكبرا

ثم حملت حملا آخر، فدخل عليها وهى فى الطلق، وكانت تُسمى ربابا فقال:

أيا ربابى طَرِّقى بخير وطَرِّقى بُخصية وأيْرِ
ولا تُرينا طَرَفَ البُظَيْرِ

ثم ولدت له أخرى، فهجر فراشها وكان يأتى جارة لها، فقالت فيه وكان يُكنى أبا حمزة :

ما لأبى حَمْزة لا يأتينا يَظَلُّ فى البيت الذى يَلينا
غَضبان أن لا نَلِدَ البنينا وإنما نأخذ ما أُعْطِينا
ونحن كالأرض لزارعيها نُنبت ما قد زرعوه فينا

فألانَهُ قَولُها، ورجع إليها)[٣٩]

لقد أفحمته الزوج برقتها وعقلانيتها، لمناشدة البعد الإنسانى فيه، فهاهو ذا يضاجع امرأة أخرى، جارة لهم هاجرا زوجته بغير ذنب بعد أن شهر بها وبذؤ فى ذكر أعضائها الجنسية، والجريمة الوحيدة هى تحطم حلمه فى الولد الذكر الذى سيخوض عنه الحروب ويدفع الأعداء، وإذا كان الحلم قد تحطم فليس رحم المرأة مسئولا عنه، حتى ولو لم يكن الإنجاب فتاة ؛ بل عنزة أو قردا.

وقد يُعير الرجل زوجته بسبب واهن آخر لا ذنب لها فيه. إنه الدهر إذا كان للدهر ذنب، فها هو ذا يعيرها بالسن والشيخوخة، وكأنه ينتظر منها أن تجمد على حالة الشباب والبضاضة بينما يشيخ هو ويساير الزمن وكأن الزمن صديق له لن يترك علامات " الخنشرة " والهِرم عليه وقد هجا أعرابى امرأته، فقال :

يا بكــــر حـــواء من الأولاد	وأم آلاف من العبـــــاد
عمـرك ممـــدود إلى التنـــادى	فحدثينا بحديـــث عاد
والعهد من فرعون ذى الأوتاد	يا أقدمَ العالم فى البلاد

إنى من شخصك فى جهاد(٤٠)

فماذا هى فاعلة فى يد الزمان الراسمة غضونها على الملامح، ويبدو أن هذا الأعرابى لم يعثر فى زوجته على عيب سوى العمر فراح يكرر فى أبياته الثلاثة الفكرة ذاتها، وكان يكفينا منها جميعا بيت واحد، ويبدو كذلك أنه تدارك تكراره وفراغ ذهنه فأطلق تعبيرا أخيراً غير محدد الملامح والدوافع، حين قال: " إنى من شخصك فى جهاد "فلم يقنع سامعيه وقارئيه بوجاهة حجته.. ولم يشاركوه الكراهة لزوجته.

وهذا أعرابى آخر يفسر موقف الأعرابى السابق، فقد تزوج من امرأة "فطالت صحبتها له فتغير لها، وقد طعنت فىّ السن فقالت له : ألم تكن تُرضى إذا غضبت، وتُعتِب إذا عَتبت، وتشفق إذا أبيت، فما بالك الآن؟

قال : ذهب الذى كان يُصلح بيننا"[٤١]

السبب الأوحد فى موقف الزوج الرجل هو أنه قد ذهب ما كان يُصلح بينهما أى جمالُها وصباها، كأنه قد عمى عن انفتال شبابه من بين يديه أيضا.

على أن أعرابيًا آخر ربط بين السن وسوء الخلق والعقم فى زوجته

أشكو إلى الله عيال دردقا مُقرقمين وعجوزا شملقا[٤٢]

ومثار العجب هنا أن سوء الخلق هذا وجفاف الرحم؛ لم يبدُ للشاعر إلا بعد أن أسنت الزوج، كما أن ذكره العيال يعنى أنها منجبةٌ فعلا، لكنه يريدها سماء ممطرة أبدا بالأطفال.

وفى كل حال نرى المرأة لدى بعض الشعراء مغضوبًا عليها، فإن هى رفضت الرجل زوجًا؛ شتمها بأقذع ما فى خزائن اللغة، وإن تزوجته هجا فيها ما لا يُهجى من سن ونوع الوليد، وأخيرا ينتهى به المطاف إلى شتمها أيضًا فى حالة ثالثة وهى حالة الطلاق فقال أبو عبيدة : "طلق رجل امرأته وقال فى ذلك :

لقد طلقتُ أخت بنى غلاب طلاقًا ما أظن له ارتدادا

ولم أك كالمُعدَّل أو أويس إذا ما طلقا ندما فعادا"[٤٣]

تسود حالة ارتياح هنا، وكأنه قد أطلق سراحه من معتقل أبو غريب، وتصريح هذا الأعرابى بالسعادة لطلاق زوجته لا تحتمله أرض ولا سماء إنها الغُل الذى لا عبودية بعده فهو يقول:

ظعنت أُمامة بالطلاق	ونجوت من غُل الوثاق
بانت فلم يألم لها	قلبى ولم تَدمع مآقى
ودواء ما لا تشتهيه	النفس تعجيل الفراق
والعيش ليس يطيب بين	اثنين من غير اتفاق
ولو لم أُرح بفراقها	لأرحت نفسى بالإباق[٤٤]

والوهم ربما دفع الرجل لارتكاب هذه الفعلة، حتى ولو كان فى حكمة المغيرة ورجاحة عقله، فقد رأى "امرأة له تُخَلِّل بعد صلاة الصبح، فطلقها. فقالت : علام طلقنى ؟ قيل : رآك تُخَلِّلين، فظن أنك أكلت. فقالت: أبعده الله ! والله ما أتخلل إلا من السواك"[٤٥]

وهذا سببٌ يبدو وجيهاً، وإن كان غير صحيح، لكن أسباباً أخرى تدفع الزوج لفصم حياته عن نصفه الآخر وهى الافتراء بعينه فقد "كانت عند الأعشى امرأة من قومه يقال لها أم الجلال، فطالت مدتها معه وأبغضها، ثم خطب امرأة من قومه يقال لها جَزْلة – وقال الأصمعى : خولة – فقالت له: لا حتى تُطلق أم الجلال، فطلقها، وقال فى ذلك :

تقادَم وُدّك أمَّ الجَـــلال فطاشت نبالُك عند النضال

وطال لزومُك لى حِقبة فَرثّتْ قُوى الحبل بعد الوِصال

وكان الفؤاد مُعجبـــا فقد أصبح اليومَ عن ذاك سالى"[٤٦]

فالسبب هنا الامتثال لأمر امرأة أخرى لا لعيب فى امرأته، وهو لم يطلقها فقط، بل أطلق شعره فيها؛ ولذا فقد ردت عليه أم الجلال "بئس والله بعلُ الحُرة وقرينُ الزوجة المسلمة أنت! ويحك! أعددت طول الصحبة والحرمة ذنبا تسبنى وتهجونى به! ثم دعت عليه أن يُبغضه الله إلى زوجته التى اختارها، وفارقته، فلما انتقلت إلى أهلها، وصارت جزلة إليه، ودخل بها لم يحظ عندها، ففركته وتنكرت له واشتد شغفه بها"[٤٧]

لقد أصابته لعنة الزوجة المظلومة، وتحققت أمنياتها بألا ينعم بالزوج الجديدة، وأن يعانى نزف الفراق ويسقط فى هوة القطيعة؛ كما أسقطها.

فماذا عن أمنيته هو – أى الزوج المفترى – لزوجته ؟! هناك بيتان شهيران يرددهما كل زوج على ما نظن علنًا أو سرًا يقول فيهما الشاعر:

لقد كنتُ محتاجا إلى موتِ زوجتى ولكن قرينُ السوء باقٍ مُعمَّرُ

فيا ليتها صارت إلى القبـــر عاجلاً وعذبها فيه نكير ومُنكـــر[٤٨]

موتها لا يكفيه، هو يريد لها العذاب فى الحياة الأخرى، ولو أنه كان يملك أن يقيم لها الجحيم في الدنيا ويخلدها فيه لفعل !!

إنها أنماط من افتراءات الرجل ضد المرأة الزوج، وبدا لنا أن أكبر دوافعها علاقة الذكر بالأنثى، لا الإنسان بالإنسان، فالمرأة إذا شاخت تصخرت أنوثتها فكرهها الرجل، وتمنى لها الموت فى الدنيا و الجحيم فى الآخرة، وإذا هى أنجبت أنثى؛ تحطم حلمه فى الذكر الوارث والمحارب وحامل الاسم. وإذا رأينا أن الرجل ظالم فى هذه الحالات القليلة، فهل يكون مظلوما فى حالات أخرى؟ هذا ما تستفيض بقية الفصول فى سرده.

القبـح أنـواع

يبدو لنا أن ليلى وعزة وبثينة وأضرابهن من معشوقات العرب لم يكنَّ سوى وهم لظبيات منطلقات فى بيادى العرب، هن تربين على لبن النوق فى مراتع الرعى وبين صهيل الخيول وعواء الذئاب وصليل السيوف ... والترحال خلف الماء والكلأ . فهل تنجب مثل هذه البيئة حوريات ، يرفلن فى الديباج ، يهفهف عطرهن لأسر الرجال؟! ربما كان هذا خيالنا الشاطح تجاه جداتنا، أو هو إحساسنا بالفوقية بالنسبة إليهن ، ولكن ما القول ونحن نتسلم من أجدادنا فيضًا فى هجو النساء، ينطلق أول ما ينطلق من أشكالهن ، وهم أصحاب المشاهدة والمعايشة والخبرة فى نسائهم ربما تقف تلك الصورة السوداء من هجو الأزواج لهن حجر عثرة أمام قصائد الغزل والمديح فيهن قبل الزواج، أو فيهن من غير أزواجهن .. مما يجعلنا نتساءل أحقا أثَّرت البيئة فيهن وصاغتهن مسخًا شائهًا .. أم أنها دوافع نفسية لهذا الصراع السرمدى بين الزوجين؟

لقد استفاض العرب - الشعراء منهم - فى تقبيح الزوجات وأكثر مظاهر القبح فى تصوراتهم هو الشكل. ولسنا نستعرض الآن حيثيات

هذا القبح، إنما ندعه يترى عبر أبياتهم، وهذا لا يعنى أنه لم يكن هناك أشكال أخرى من القبح فى الزوجات قد تعرض لها أجدادنا الشعراء، فهناك قبح النفس والعقل، وأشكال من عدم التناسب، أو الصور (الكاريكاتيرية) التى رسمها الشاعر للمهجوة، بل هم أيضا لم يتورعوا عن طعن الزوجات وفضحهن فى أخص الخصوصيات؛ ما لا يطلع عليه إلا الزوج من زوجته، كما رأينا قبحًا آخر أو هم رأوه يتمثل فى المرأة العاقر، وأطرف ما ينسب للزوجة أنها تمارس دور عزرائيل ضد زوجها، فإذا شاء القدر أن تزوجت مرة واثنتين أو ثلاثًا ومات الأزواج، أضحت فى عرف هؤلاء الشعراء مقبرة للأزواج وشؤمًا مقيمًا لهم.

ماذا إذن عن هجاء الشكل هذا؟!

يقول الشاعر فى وصف امرأته اللثغاء:

أول ما أسمع منها فى السحر   تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر

والسوأة السوآء فى ذكر القمر(٤٩)

الرجل أدرك فجأة أن امرأته لثغاء، وكأنه لم يسمع منها ولم تصك ألفاظها أذنيه إلا بعد الزواج على الرغم من أنه أكل وشرب وسمع وتحدث وربما سامرها قبل أن يتزوجها طبقًا لما هو معروف فى البيئة العربية، أما المفاجأة الأسوأ من اللثغة فهى ما تعرض له دريد بن الصِّمَّة فى امرأة تزوجها "فوجدها ثيِّبًا وقد أخبروه قبلاً أنها بكر، فحمل السيف

وانطلق إليها فمنعته عنها أمُّها فجرح يد الأم ولم يقطعها وقال فى الأم:

"أقر العين أن عصَبَتْ يديها ... وما إن تُعْصَبَانِ على خِضابِ

فَأَبْقَاهُنَّ أنَّ لَهُنَّ جَسَدًا ... وواقيةً كواقيةِ الكلابِ(٥٠)

ثم إنها ليست صادمة له فى غذريتها فقط بل فى شكلها أيضًا وإن كان الشكل مطروحًا أمامه من قبل لكن عين البغض " تبدى المساويا".. إذ قال فيها أيضًا :

أَشْبَهَكِ المِسكُ أَوْ أَشْبَهْتِهِ ... قَائمةً فى لونه قَاعِدة

لا شكَّ إذ لَوْنكما واحد ... أنكما من طينةٍ واحدة(٥١)

وإذا كان التعارف الزوجى بين دُريد وامرأته الساخط عليها محدود الزمن فكان رد الفعل عنيفًا، فإن علاقة ممتدة قد تحدث بين الزوجين، وعلى الرغم من ذلك لا تشوبها إلا الضغائن، فما الذى يبقى هذه العلاقة قائمة؟ ربما كان الأبناء.. فالابن لدى إسماعيل بن عمار هو الذى دفعه لاحتمال امرأة لا مثيل لقبح شكلها بل ومسلكها كذلك إلى حد أنه يقول فيها :

بُليتُ بِزَمُرَّدَةٍ كالعَصَا ... أَلَصَّ وأَخْبَثَ من كُنْدُشِ

تُحِبُ النساءَ وتأبى الرجال ... وتمشى مع الأسْفَهِ الأَطْيَشِ

لها وجهُ قِردٍ إذا ازَّيَنَتْ ... ولونٌ كبَيْضِ القَطَا الأَبْرَشِ

ومن فـوقـه لِمّـَةٌ جَـشْـلَةٌ   كمـثل الخوافي من المَرْعَشِ

وبطـنٌ خـواصِـرُه كـالوِطـا   ب زادَ على كـرشِ الأكـرشِ

وإن نَكَهتْ كِدْتُ من نَتْنِها   أخـرُّ على جـانـبِ المَفْـرَشِ

وثديٌ تـدلّى عـلى بطـنهـا   كـقِـرْبـةِ ذي الثَّـلَّةِ المُعْـطِشِ

وفـخـذان بيـنهـمـا بَسْـطَةٌ   إذا ما مشتْ مِشيةَ المُنْتَشي

وسـاق بخلخـالهـا خـاتم   كساق الدجاجة أو أحـمش

وفي كل ضـرس لهـا أكلة   أصل من القـبـر ذي المنبش

ولمّا رأيـتُ خَـوَا أنـفـهـا   وفيـها وإصلالَ ما تحتشي

إلى ضامرٍ مثل ظِلْفِ الغزال   أشـدّ اصـفرارًا من المِشـمِـشِ

فـرَرتُ من البَيتِ من أجلها   فِـرارَ الهَـجينِ من الأعـمـشِ

وأبـرَدُ مـن ثَلْج سَـاتِيـدَمَـا   إذا راح كـالعُـطُب المُنـفَشِ

وأرْسَـحُ من ضِـفْـدَعٍ عَـثَّـةٍ   تَنِقُّ على الشَّطِ من مَرْعَشِ

وأوسَعُ من باب جِسْرِ الأميرِ   تُـمِـرُّ المَحَـامِـلَ لم تَحْـدِشِ

فـهـذي صِـفـاتِي فـلا تـأتـهـا   فقد قلتُ طَرْدًا لها كَشْكِشي(٥٢)

وفى تصورنا أن هذه القصيدة تعد من عيون البذاءة الشعرية العظيمة إذا صح لنا أن نصف البذاءة بالعظمة، إنها بذاءة بناءة، بذاءة فنية وقد تجسد مقُولاتٍ حديثة.. بأن فى كل قبح جمالاً وأننا يمكن أن نصنع من القبح جمالاً، فهذا الكائن البشرى المهجو توقف الشعر عند شكله مَعْلَمًا مَعْلَمًا حتى تقززنا من كل عضو على حدة، وتقززنا من الكومة البشرية مجتمعة، ومع تعويله على الشكل فى القصيدة كلها لم ينس أن يتعرض لقبح نفسها أو لانحرافها عندما قال: " تحب النساء وتأبى الرجال" فهى شاذة المسلك، ثم يعرض لنا وجهها " وجه القرد" وشعرها وبطنها ورائحة فمها وساقيها وأنفها وأضراسها وكل جزء فيها حتى ما لا يذكر.

وعلى الرغم من ورود هذه القصيدة بترتيب أبياتها هذه فى أكثر من مصدر كالأغانى وذم النساء فإن قلقًا ما فى ترتيب الأبيات نلمحه خصوصًا فى ترتيب الأبيات الأربعة الأخيرة والتى نظن أن مكانها الطبيعى يأتى بعد البيت: (وفى كل ضرس لها أكلةٌ...)

ونظن أن الختام المنطقى لهذه العلاقة بين الشاعر النافر من زوجه وهذه الزوج التى تعد مخزنًا للقبح هو قول الشاعر:

فررت من البيت من أجلها   فرار الهجين من الأعمش

أما الفرزدق فقد وجه طعنته إلى زوجه نوار مباشرة حينما فضل عليها أعرابية تقيم فى خباء وهى المرأة الحضرية المنعمة.. قال لها:

لعمرى لأعرابيَّة فى مِظَلَّةٍ تظلُّ بأعلى بيتها الريحُ تخفِقُ

كأمٍّ غَزالٍ أو كدرةِ غائصٍ إذا ما بدتْ مثل الغمامةِ تشرِقُ

أحبُّ إلينا من ضناكٍ ضِفنَّةٍ إذا رُفعتْ عنها المراوح تعرَقُ(٥٣)

هجو الشكل فى هذه الأبيات ذو شقين : الأول يحمل معنى مرنًا مفتوحًا للتأويلات وهو تفضيل الأعرابية على هذه الزوجة.. الأعرابية بجفافها وربما جلافتها وبساطتها وكل ما نتخيله عنها من سلوك النشأة.. أحب إلى الشاعر من هذه الزوجة، وعلينا نحن أن نرسم ملامح قبح نوار التى نَفَّرتْ منها الفرزدق.

أما الشق الثانى لهذا الهجو الشكلى فهو المتمثل فى البيت الأخير أو جزء منه.. فالزوجة (إذا رفعت عنها المراوح تعرق) أنها سمينة فتغرق فى عرقها والشاعر هنا من طرف خفى وربما بدافع لا شعورى يبالغ فى إهمال قدر زوجته إلى حد أنه يفرد لها عدة كلمات فقط فى هذه الأبيات وتستأثر الأعرابية بجُل مقولته.

ولا مراء فى أن أكثر ما يستوقف الهجَّاء العربى شكل من يهجوه فغلب الهجاء الحسى على أنماط الهجاء الأخرى لكن هذه الأنماط لم تغبْ تمامًا، فقد جاء من قبيل قبح النفس والعقل طبقًا لمفاهيم الشعراء

قول الصمة القشيرى فى زوجته التى هجرها لدى قومه والتى تسمى جَبْرة بنت وحشى بن الطفيل بن قرة بن هبيرة :

كُلِى التَّمرَ حتى تَهْرمَ النخلُ واضفِرِى

خِطامَكِ ما تدرِين ما اليوم من أمس(٥٤)

إنها مختلة العقل غير مدركة، تداخلت لديها الأيام والأحداث، فيها شىء من الخلط. وفى زوجة الحطيئة شىء من الاعوجاج واللكع

أطوِّف ما أُطوف ثم آوى ... إلى بيتٍ قعيدتُه لَكَاع(٥٥)

هى قابعة له كملك الموت فى القبر مستقبلاً بشرًا شريرًا ولكاعُ هذه تحمل معانى اللؤم والضعة والنكد وكل ما يفيد عدم استواء النفس البشرية وهو نموذج شائع فى الزوجة العربية قديما وحديثا وما الشعراء إلا ممثلى الرجل العربى أمام هؤلاء الزوجات، أما الأمر غير العادى هو هذا التهذب من أبذأ شاعر على الأرض: الحطيئة، الذى لم يهجُ زوجته فقط بل هجا أمه ونفسه وطوب الأرض.. لم يتهمها هنا إلا بأنها لكاع وهى مفردة تحمل شحنات كثيرة وكان يمكن أن تكونَ كافية من غير الحطيئة أما منه فهى نقطة من بحر لُجى. فإذا كانت زوجة الحطيئة بهذا الخلل النفسى فزوجة دُريد بن الصمة (أم مَعبِد) أشد خللاً نفسًا وعقلا هى تسير ضد الطبيعة البشرية وتأنف من زوجها أن يحب أخاه وأن يرثيه. فترد عليه بأن تسب هذا الأخ وها هو ذا دُريد يقول فيها:

أَعَبْدَ اللهِ إن سَبَّتْكَ عِرْسـى   تَقَدَّمَ بعضُ لَحمى قبلَ بَعْضى

إذا عِرْسُ امـرِؤٍ شَتَمَتْ أَخَاه   فليـس فؤادُ شائنه بحَمَضِ

معاذَ اللهِ أن يَشْتُمنْ رَهْطى   وأن يَملُكْنَ إبْرامى ونَقْضى(٥٦)

ورغم لؤم موقف أم معبد فإن دُريد بن الصمة كان أعلى نفساً ومال إلى الاعتذار لأخيه أكثر من هجو زوجته وهذا دأبه حين قال أيضاً:

أرَثَّ جديدُ الحبلِ من أُم معبـد   بعاقبـةٍ وأخْلَفَتْ كلَّ مَوعِـدِ

وبانتْ ولم أَحْمَدْ إليك جِوارَها   ولم تَرْجُ منّا رِدَّةَ اليوم أو غَدِ(٥٧)

فهذا أميل إلى العدل منه إلى الهجو.

ومن أنماط القبح التى استوقفت الشاعر فى امرأته ما يمكن أن نسميه عدم التناسب فى أجزائها فرسم لها صورة (كاريكاتيرية) ساخرة ومُرَّة فى الوقت نفسه.. انظر قول هذا الأعرابى فى امرأة تزوجها:

ولا تستطيع التكحل من ضيق عينها

فـإن عالجته صار فـوق المحاجرِ

وفـى حاجبيهـا حَـزةٌ كغـرارة

فـإن حُلقـا كانا ثـلاث غرائرِ

وثديـان أمـا واحـدٌ فهـو مِزْوَدٌ

وآخـر فيـه قِربةٌ للمسافرِ(٥٨)

واستكمل هذه الصورة الفظيعة لكيان بشرى شائه، غير متناسق ولا متناسب الأجزاء حين قال:

لها جسم برغوث وساقا بعوضة ووجه كوجه القرد بل هو أقبحُ

وتبرقُ عيناها إذا ما رأيتها وتعبس فى وجه الضجيج وتكلِحُ

لها مضحكٌ كالحش .... أنها إذا ضحكت فى أوجه القوم تَسْلَحُ

وتفتح - لاكانت - فما لو رأيته توهمته بابًا من النار يُفتحُ

إذا عاينَ الشيطان صورة وجهها تعوذ منها حين يُمسى ويَصبحُ(٥٩)

يفصل الشاعر صوراً متداخلة ومتواترة لا تخطر على ذهن أحد، فالجسم برغوث والساق بعوضة والوجه قرد وهذا كله فى بيت واحد ثم يجمل فى النهاية وكأنه لم يشبع رغبته فى الانتقام منها وكأنه كذلك يبدى اعترافًا بعجزه عن سرد كل شائه فيها فإذا هو يقول: إن الشيطان نفسه أكثر خلق الله قبحًا، بالنسبة إليها ملاك جميل، إلى درجة أنه يتعوذ من وجهها إذا رآها صبحًا أو مساءً.

وهذه الأبيات وما سبقها أوردها كتاب " ذم النساء " منسوبة لأعرابى، لكن "موسوعة الشعر العربى" نسبتها إلى جران العود، واتفق فى نسبتها لأعرابى ابن عبد ربه فى " العقد الفريد "(٦٠)

***

ومن قبيل القبح المزدوج أى قبح المهجو وقبح المهجو به أى بذاءة القول التى قد تنفر المتلقى من الشاعر نفسه لا من الزوج ما قاله سليمان بن يحيى بن زيد بن معبد الشهير بابن أبى الزوائد وقد فضح ؛ حقًا أو باطلاً، علاقته الحميمة بها والزوج مطالب بستر الزوجة لا بفضحها فى أخص خصوصيات الارتباط الإنسانى والذى يعد قدس الأقداس لدى الزوجين، ابن أبى الزوائد هذا قال فى زوجته رملة الأنصارية:

يا رَمْلُ أنت الغولُ بين رعالِ — لم تظفرى بتُقًى ولا بجمالِ
يا رملُ لو حدِّثتُ أنك سَلْعَعٌ — شوهاء كالسِّعْلاة بين سَعَالى
ما جاء يطلبك الرسول بخطبةٍ — منّى ولا ضُمَّت عليك حِبالى
ولقد نهى عنكِ النَّصيح وقال لى: — لا تقرِنَنَّ بذيَّةً بعيالِ

وقال أيضًا:

رجع المهنَّدُ ما له من حِيلةٍ — وهناك تصعب حيلة المحتالِ
وكأنما أولجتُه فى قُلةٍ — قد بُرِّدتْ للصومِ أو بُوقالِ
ورأيت وجهًا كاسفًا متغيرا — وحِرًا أشق كمِركَنِ الغسَّالِ
ما كان أيرُ الفيلِ بالغ قعرِه — بتحامُلٍ عنه ولا إدخالِ
وقد طعنت مَبَالها بسُلامِها — فوجدت أخبث مَسْلَحٍ ومَبَالِ[٦١]

وهذه البذاءة فى التعبير والمفردات يمكن أن تتوازى معها بذاءة أو قذارة فى الموقف، فقد "تزوج أعرابى امرأة، فلما دخل بها عابثها فضرطت، فخرجت غضبى إلى أهلها، وقالت: لا أرجع حتى يفعل مثل ما فعلت فقال لها: عودى لأفعل. فعادت ففعل، فبينما هو يداعبها إذ حَبَقَتْ مرة أخرى، فقال الأعرابى:

طالبتنى دينا فلم أقضكِ ... والله حتى زِدْتِ فى قرضكِ

فلا تلومينى على مَطْلَـةٍ ... إن كان ذا دأبك لم أقضكِ(٦٢)

القضية هنا .. لا قضية تلخص سذاجة العربى وسطحيته ؛ رجلاً كان أم امرأة، فإذا كان من خيرٍ لهذه الواقعة فهى ما خلفته من شعر لو أنه اقتطع من سياقه لكان عذبًا مستساغًا.

ما سبق جميعًا من رؤية الرجل لزوجه يمكن أن نسميه قبحًا أى أن المرأة قبيحةٌ فعلاً وهو يتفنن كمبدع فى إبراز هذا القبح بطرائقه، ولكننا الآن بصدد ما يمكن أن نسميه " تقبيح " والقبح غير " التقبيح " يعنى إلباس الزوج ثوبًا ظالمًا وإلصاق تهمة بها هى منها براء، لكنها تبقى قبيحة فى نظر الشاعر بلا ذنب سوى أنها عاقر مثلاً ، وهى فى هذا قد تعاقب مرتين : التقريع والإهانة بالهجاء ثم التطليق، وقد "طلق رجل امرأته وقال فيها:

تجهـــزى للطـلاق وارتحلـــى   فذا دواء المجانِب الشَّرس

مــا أنــت بالحنَّة الولــود ولا   عندك نفع يرجَّى لملتمسِ

لليـلـة حيــن بِنْــتِ طالقــةً   ألَذُّ عندى من ليلة العُرس

بــتٌّ لديهـــا بشـــرٍّ منـــزلةٍ   لا أنا فى لذة ولا أنـــسِ

تلك على الخسف لا نظير لها   وإننى لا يسوغ لى نَفَسِى"(٦٣)

والحق أن العقم ليس وحده ما يراه الرجل قبحًا فى زوجه، ظالمًا إياها .. بل قد ينسب لها نمطًا غريبًا آخر من السلوك لا يقوم به سوى عزرائيل وها هو ذا محمد بن أبى عيينة يقول: "لسعيد بن عبَّاد بن حبيب الذى تزوج بنت سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب وقد تزوجها قبله اثنان فدفنتهما فبعث يقول له:

رأيتَ أثَاثَها فرغبْتَ فيه   وكمْ نصبتْ لغيرك بالأَثَاث

إلى دَارِ المَنُونِ فجهَّزَتْهم   تحثُّهـــم بأربعـــةٍ حِثـــاثِ

فصيِّرْ أمْرَها بيَدى أبيها   وسَـرِّح مِنْ حِبَالك بالثلاث

وإلاّ فالسلامُ عليكَ منِّى   سأبدأ مِنْ غدٍ لَكَ بالمراثِى"(٦٤)

تتلقى المرأة التجريم والإدانة لأن أزواجها الثلاثة قد ماتوا عنها.. كان الأجدر بالناس أن يلقوا عليها العزاء والمواساة لا التجريم والتجريح واللعنة.

***

وربما اجتاز الشاعر الهجَّاء حدود هجوه وتفصيل المثالب فى الزوج إلى طرح الحل العملى أو الدرامى لهذه المرأة القبيحة.. الحل هنا يقدمه "محمد بن كناسة فى زوجته وقد رأى رجلاً مصلوبًا على جذع شجرة:

أَيَا جذْعَ مَصْلُوبٍ أَتَى دُونَ صَلْبِه ... ثَلاثُون حَوْلاً كاملاً هلْ تُبَادلُ

فَما أنْتَ بِالحِمْلِ الذى قَدْ حَمَلْتَهُ ... بأَضْجَرَ مِنِّى بِالّذى أنا حَامِلُ[٦٥]

هذه أمنية أخيرة من وراء البيتين بأن تصبح الزوج مصلوبًا كما صلب هذا الرجل على جذع شجرة، فقد احتملها الزوج أكثر من احتمال هذا الجذع للجثة المصلوبة عليه.

النكد ... صناعة زوجية

نكد الزوجات ألوان وملابسات وطقوس لا تكاد تحصى، وإن قعد
لها كل مقعد الشاعر حزين عمر، فتتبع منها ما استطاع ممسكًا بذيوله
أفلت منه أكثر ربما مما أمسك من هذه الذيول !!

ولنعرج قبل الشاعر حزين عمر إلى بعض الجذور النكدية الواردة
نثرات لدى أجدادنا، فها هو ذا ابن عبد ربه يقول: "نكح رجل امرأة من
العرب فلما اهتداها رأت ريع داره أحسن ريع، وشمل عياله أجمع شمل،
فقالت : أما والله لئن بقيت لهم لأشتتن أمرهم، وقالت فى ذلك:

أرى نارا سأجعلها إرينا وأترك أهلها شتى عزِينا .

فلما انتهى ذلك إلى زوجها طلقها، وقال فى ذلك :

ألا قالت هَدِى بنى عَدِىّ أرى نْارًا سأجعلها إرينا

فبينى قبل أن تَلحَىْ عصانا ويُصبح أهلُنا شَّتى عِرينا"(٦٦)

إنه النكد بلا مبرر، هو ليس حسدا ولا حقدا لأن المرأة أصبحت
طرفا فى هذه الحياة الرغدة التى يوفرها لها الزوج، كان عليها أن تزيد

الثراء ثراءً أو أن تتمسك بالحياد على الأقل لكنها دون مبرر سعت لتدمير الأسرة وتخريب الديار كأنها شيطان رجيم سُلط على هذه الأسرة الآمنة .. والطلاق ليس عقابا كافيا لهذه النكدة لكنه المتاح للرجل.

وقد يداوى النكد الزوجي بنكد مثله أي الزوج بزوج، فإذا ما انحرف طبع المرأة إلى الكيد لزوجها فالعلاج هو أنه لا يفل النساء إلا النساء، وهذه هي الواقعة التي ساقها أبو الفرج الأصفهاني حينما قال: "كان محمد بن بشير الخارجي من أهل المدينة، وكانت له بنت عم سَرِبة جميلة، قد خطبها غير واحد من سروات قريش، فلم ترضه. فقال لأبيه: زوجنيها . فقال له كيف أزوجكها وقد رد عمك عنها أشراف قريش. فذهب إلى عمه فخطبها إليه، فوعده بذلك، وقرب منه. فمضى محمد إلى أبيه فأخبره، فقال له: ما أراه يفعل. ثم عاوده فزوجه إياها.. فغضبت الجارية، وقالت له: خطبني إليك أشراف قريش فرددتهم، وزوجتني هذا الغلام الفقير ؟ فقال لها: هو ابن عمك، وأولى الناس بك، فلما بنى بها جعلت تستخف به وتستخدمه، وتبعثه في غنمها مرة، وإلى نخلها أخرى. فلما رأى ذلك من فعلها قال شعراً، ثم خلا في بيت يترنم به ويُسمعها.. وهو:

تثاقلتِ أن كُنْتُ ابنَ عمّ نكحتِهِ

فملتِ وقد يُشْفَى ذوو الرأى بالعَدْلِ

فإنك إلا تتركى بعــض مــا أرى

تُنازِعْك أخــرى كالقرينة فى الجبلِ

تَلُزُّك ما استطاعت إذا كان قَسْمُه

كقَسْمِك حَقـا فى التِّلاد وفى البعْل

متى تحمليها منـك يومــا لحــالة

فتتبعَها تحمِلك منهــا علـــى مِثــل

قال: فصلحت، ولم ير منها بعد ما بسمعت شيئا يكرهه"(٦٧)

المرأة هنا لم يشفع لها الدم والقرابة لترق وتلين تجاه الزوج الذى لم يرتكب جرماً سوى الاقتران بها.. وساقه الذكاء إلى هذه الحيلة المعلنة شعراً، وقد انطلت على الزوجة النكدة فاستقامت له، وكنا نلمح لهذه الحالة النكدية مبرراً تجسد فى " ميلة بخت" هذه المرأة وانحدار مستواها الاجتماعى من خيرة رجال قريش، إلى رجل شبه معدم وإن كان من نويها. وتلمسنا لسبب ظاهر لهذه الحالة لا يعنى توافر الأسباب فى كل حالات النكد الأخرى، فهناك من يرى أن الزوجة : "نكدة بالفطرة والوراثة وبدون مناسبة .. لا لأن زوجتك فى البيت تفتش عن ذرات النكد وترقعها قطعة قطعة حتى تضحى دانة مدفع تتفجر فى وجهك صباح مساء .. فهذا أمر مفروغ منه ولا يحتاج إلى مواساة.. بل لأن النساء قد

تنكد وتنوح وتهدر الدمع مدراراً، ولا نعرف لماذا؟! ربما كانت الصنعة التى نبغت فيها المرأة دون الكائنات جميعًا هى "سلعة النكد" تصنعها سائلة وغازية ومعلبة ومجففة ودائرية ومستطيلة ومقعرة المهم ألا تدع ثغرة واحدة فى جسد الرجل لا يخترقها نكدها .. ولا تسألنى عن المبرر"(٦٨)

هذا حكم يبدو لى مشوبا بتحيز ضد الزوجات بصفة خاصة والمرأة بعامة فهل تلخصت أدوار الزوجة فى حياة الرجل فى أداء هذه المهمة غير المقدسة من وجهة نظر حزين عمر؟! الأمر عنده لا يقف عند هذا الحد إنه كما أشرنا فى بدء هذا الفصل يملك منظومة من العداء للحياة الزوجية ومن رصد أنماط النكد الزوجى فأصبح لديه " مشروع شعرى" فى هذه القضية، لم نر مثيلاً له فى تراثنا الشعرى ولا إبداعنا الحديث. لقد لفت نظرى هذا التعويل الشديد على هذه الجزئية الدقيقة من علاقة الزوج بزوجته فرأيت أن أتتبعها، فإذا بها مرصودة فى عدة دواوين عبر عدة قصائد وقد تفنن فيها الشاعر بطرائق قد تستفز المرأة وقد تقلبها ضده وقد تدفعها لتساؤل عن مكنونات نفس هذا الشاعر وهذه السوداوية الفظيعة تجاه المرأة الزوجة، إنه حالة تستحق البحث والتوقف عندها كثيراً لنصل إلى أسباب هذا الموقف.. وقبل أن نحقق هذا الغرض البحثى فلنستعرض أولاً ما أنتج من " التكديات" فى عمل له صنَّفه هو على أنه "نثرية" يقول حزين عمر:

هذه لحظة بألف عام:

السماء داعبتني بومضة من صمتها اللألاء

قطرة من نسمة عذرية تعلقت بسمعى

ولم تدع بمقلتى قشة من اللغط

والرافعى - صاحبى - رفيق جلستى ومكتبى

أزاح باليدين طربوشهُ

فتبدو صلعة تموجت بطرفها سنابل الفِكَرْ

مكذباً من وصفوه بالصم،

تفتحت أذناه والتقطت

رذاذَ صمتها !!

بمفردى الآن وحدى

أوشوش القصيده

وأختبى فى موجها

وأرتمى فى مقطع لمقطع على ضفاف قصة

وأشرب الموسيقى

بمفردى الآن أبدو،

كأنى أنا منذ عام ونصف !!

وزوجتى فى غفوها

تنغص الملائكة !!![٦٩]

حالة وصفية للاستغراق الإنسانى العميق المغلف بالصمت الكونى "السماء داعبتنى بومضة من صمتها اللألاء" وبالصمت فى مستواه الآخر : الصمت الفردى الذى جعله يستدعى مصطفى صادق الرافعى المصاب بالصمم حتى لا يكون هناك أى منغص عبر أى صوت، وهناك صمت ثالث يمثله الاستغراق فى الوحدة "بمفردى الآن وحدى أوشوش القصيده" فحينما استدعى الشاعر من يؤنسه من البشر استدعى الرافعى، وحينما استدعى من الأشياء استدعى القصيدة، وهو لا يتحدث معها إنما يوشوشها فقط. ولا عيب فى نمط آخر من الصمت " الصمت المعلن" إنه الموسيقى والتى لا يبدو لها لهاث وإنما هى شىء من العذوبة لا يُسمع بل يرشف " وأشرب الموسيقى ".

هذه حالة إنسانية عميقة فما دخل الزوجة بها إذن ؟! أراد الشاعر أن يقلب المائدة على رأس المتلقى وأن ينقلنا من النقيض إلى النقيض فيختم قطعته النثرية بسطرين اثنين يحملان المفارقة العنيفة والمرة فى سخريتها:

"وزوجتى فى غفوها

تنغص الملائكة !! "

لقد أصبحت الزوجة نكدية بعيدة المدى أو هى كونية النكد بحيث لمَ يهرب منها حتى الملائكة، فما بالنا بالبشر.. إنها تمارس مهامها حتى فى النوم ويا لها من مهمة يعجز عنها البشر.. تكدر الحياة على الملائكة الذين لا يتكدرون وهى فى حالة النوم.. فما بالنا بالصحو ليتخيل القارئ زوجة كهذه فى حالة يقظتها وليتخيل كذلك فعلتها بالرجل: الزوج إذا كانت الملائكة نفسها منغصة بها. وفي قصيدة علاقات زوجية التى كتبها عام ١٩٩٩ يقول :

ياه . . . .

أصبحت الآن وحيداً

أصبحت وحيداً جداً

أفرجت الزوجة عن أنفاسى

عن بصّاتى المكبوتةِ تحت النظارةِ

تحت يديها

أطلقت الزوجة – حالاً – للقلب

حقوقَ النبضِ، حقوقَ الرفرفةِ،

حقوقَ الحزنِ المطلقِ

دون مقاطعةٍ وضجيجٍ

فأكاد أفيقُ

أبصُّ حواليَّ وفيَّ

فأُصدِّقُ أنى الآن أنا :

ها هى ذى قبعتى المتسخةُ

قابعةٌ فوق الرأسِ

تهشُّ سهامَ الناسِ

تصون دماغى من أىِّ طنينٍ بشرىٍّ

من كل جراثيم الجهل المنثورةِ

فى الآفاقِ وفى أنفسهم

ها هى ذى النظارةُ

نفسُ النظارةِ

مذ كنتُ شقيا فى الأرضِ

حتى أضحيتُ شقاءً فى الأرض يدبُّ

ويراى، إحداها تمسك قلماً

قلماً ؟!

أتذكره :.

من خمسة أعوام كنت نسيتُه !!

أو نسىَ القلمُ - صديقى السابقُ -

تنميلة إبهامى

حين أخطُّ "الميلاد غدا"

وحلمتُ بساعةِ رؤيا

ليست تدنو - بعد- لكل المنتظرين

أمام الغيطان

وتحت السنط

وجنب بحيرة قارونَ

وفى قلبِ النيران بحلوانَ

أو التبيين

تلك الساعةُ ليست تدنو

كانت حتى العام السبعين

قريبا من أحلام المنتظرينَ

الآن نأت

تنأى

حتى عن مرمى الأحلام

ومسقط رأسِ طموحاتِ العطشى

وأنا العطشان الأكبر

رَدَّ القلم النبض لإبهامى

وأنا الآن أصدِّق نفسى أنى وحدى

وأخطُّ مسودة قصيدة

فيم يكتب مثلى

حين يردُّ إليه الشعرُ الروحَ

ويُسلِّمُهُ قياد الكلماتِ

فتشتجرُ الكلمات على مأوى

تقطن فيه

يقيها بَرْدَ الصمتِ

يهشُّ الوحدة

عن لفظٍ يعشقُ لفظة

يتزوجها . . . .

ماذا قلتُ ؟ !

زواجٌ ؟!

الزوجةُ تقف الآن على رأسى

تُمعن فيما بدرَ من الذنب على الأوراقِ

تفلِّى كلَّ خطيئات الفضفضةِ

تصنِّفُ خطراتِ اللحظة :

هذا تهويمٌ فى نهد امرأةٍ،

هذى بصبصةٌ للسيقان !!

ياه . . . .

الزوجة تقف الآن على رأسى

ترصدُ أعماقى..

قد جفَّ الحبرُ

بحلقِ القلم

تَسَّاقطُ قبعةُ الرأسِ

والنظارةُ تُظلِمُ.. تظلمْ

إنى قد أذنبتُ.. وأعتذرُ !!!(٧٠)

إنه يلج لب القضية مباشرة وإن كان يحيلنا منذ السطر الأول "ياه ...." إلى حالة سابقة تحتمل تأويلات كثيرة يفهم من الصمت حولها ومما قيل بعدها فى السطور التالية بأنها حالة حصار من الزوجة له حتى أصبح حلم الشاعر أن يكون وحيداً مع ذاته لحظات قليلة لأن الحصار عليه محكم، إنها لا تحاصره فى دائرة أو نصف دائرة فقط بل تحاصر كل حقوقه الإنسانية والبشرية، حقه فى التنفس والنبض، حق عينيه فى النظر، حق قلبه فى الحزن، هى حالة الدكتاتورية والقمع والتى لا تستطيع أعتى معتقلات العالم أن تمارسها.

أول مفاجأة يعيشها الشاعر بعد إطلاق سراحه أنه هو نفسه .. ما زال كما أدرك ذاته قبل محنة الزواج ولكن ينتابه الشك أحياناً أنه ما زال هو فيتلمس مكوناته المادية .. القبعة والنظارة والقلم وفى إطار

الهروب الكبير يرجع إلى سنوات ما قبل الأزمة (الزواج) حينما كان حرًا، شاعرًا، حينما كتب ديوانه "الميلاد غدًا"(٧١). إنها مفارقة يقيمها بطلها هو نفسه بين ذاك الشاعر الحر الطليق المرفرف فى بسماوات العشق، وبين هذا الإنسان المقموع المتطلع للحرية والحقوق البشرية الأولى. لحظة الهروب أو الانفلات السريعة هذه أعادته إلى كنهه الإبداعى وليس له إلا أن يحقق الهوية الشعرية، بعد أن حقق الحرية الشخصية فى خلال برهة أو برهات، وراح يفكر فى أن يكتب قصيدة ويحاور نفسه حول مضمونها. هنا يتسرب الشك مرة أخرى بطريقة غير مباشرة، حول مضمونها. إنه لا يبادر بتلقى دفقات الشعر على الورق مباشرة، بل يحاور نفسه ويضع ممهدات ويريد فتح أبواب للكتابة، وفى كل هذا لا يصل إلى نتيجة فلا يكتب قصيدة لأن التفكير فى هذا المنتج الغائب عنه منذ سنين قاده إلى فكرة العشق (عشق الكلمات) مذكرها لمؤنثها وسعى كل منهما إلى تكوين عش الزوجية.. وعند هذه اللحظة يفيق من غفوته الحرة مع نفسه، فقد أطل الزواج عليه.. واستدعت مفردة الزواج زوجته الرابضة فى مكان ما قريب منه إلى درجة أنها فجأة تقف على رأسه، وفجأة تطرح قيودها على رقبته وعقله وتبدأ المحاسبة على تفكيره.

لا نضيف جديدًا إذا قلنا إنه قد استكان لحالة العبودية هذه إلى حد أنه يعتذر عما لا اعتذار عنه .. لا نضيف جديدًا.. فليعد القارئ مرة

أخرى إلى المقطع الأخير من هذه القصيدة الفلتة التى لا مثيل لها فى تاريخ الإبداع الشعرى وتعد علامة قد لا يستطيع الشاعر نفسه أن يقيم مثلها بهذا الشكل وبهذا التوجه وبهذا البناء؛ الذى يجمع بين البسمة والدمعة.. السخرية المرة والضحكة العريضة، العمق والبساطة.. الذاتية والعمومية، مع صور شعرية متراصة فى عبقرية كأنها جدارية خالدة تمثل قصة عذاب سيحكيها الزمان.. فلا نرانا أمام هذه القصيدة إلا مندهشين مذهولين لاعنين كل زوجات العالم النكديات ونستعيذ بالله أن نكون واحدة منهن.

وللحقيقة الموضوعية أننا نرى حزين عمر قد أنجز عملا آخر هو (تربية البوم): نوع فريد من السخرية والموقف الحاد والرؤى الكاشفة تجاه هذه العلاقة بين الرجل والمرأة لنقرأ القصيدة التى يقول فيها :

البومة أنثى

لا أعلم أن هناك رجالاً بومًا

أو أن هنالك نوعًا منهن يُذَكَّرْ

للبومة فلسفةٌ فوق حدود الإدراك البشرى

فلسفةٌ فى أن تنعق غبطة

حين يُهَدَّمُ سقفٌ فوق رءوس الناسِ

المحشوةِ أحلامًا وخرافاتٍ ونعيمًا وهميًا

تلتصق عظام الناس بطين الأرض

ويُرْوَى شجرُ الصبارِ، على دمهم يُزْهِرْ

كنتُ أرى البومَ يحومُ

وينعقُ فى غبطةِ سيدةٍ تخلو بعشيقٍ بعد غيابٍ

فيبلُّ جفافَ ثناياها، تعشوشب

البوم يحومُ، وينحطُّ بكلِّ خرائبَ

دَمّرها الهجرُ، أو الثأرُ، أو الدهرُ

وينعق فى استدعاء جميع الأقوامِ

من البوم الرابض فى قلب خرائبَ

قد جَفَّ أنينُ مجاليها

البومُ عدو الخضرةِ والترعة و النخلةِ

والنسمة فى قيظ الصيفِ

يحبُّ اللونَ الأسودَ، والليلَ

ولونَ نحيب الجرحى والأيتامِ

ويطربُ إن سقط العصفورُ بطلقِ رصاصٍ
أو مزَّق ثعبانٌ سِتر يمامة
أو رفرفَ كتكوتٌ بجناحيه،
يكاد يطيرُ
فينقضُّ عليه

***

البومُ القبحُ شبيهٌ بهْ
القبحُ لفافاتٌ منه
خنزيرٌ أصغرُ يسَّاقطُ من عينيه
وخلايا الكُرهِ الأبلهِ رابضةٌ
تحت جناحيه

***

لا أدرى لِمَ هذا البوم تبوَّم
لِمَ خلقَ الله البومَ وأرسله فى كل صباحٍ
ومساءٍ : نعتًا ودمامةْ

قنبلةً من حقدٍ طائر..

تتوالدْ..

كبنى صهيون ؟!

الناسُ " زمان" فى بلدى كانت صنفين :

الصنفُ نساءٌ لا تنقبض لنعق البوم

ولا ينتفض لها شعره،

و الصنفُ رجالٌ أعداءُ البوم

يتغير مجرى اليوم جميعًا

لو نعق البومُ على رأسه

اليوم تغبَّر واستعصى

الرجلُ إذا شاف الموت

يرفرف فى جنبيه

يحصبها بالنعلِ فلا تهرب غير ثوانٍ

ثم تعود إلى رأس الرجل وتنعقْ

فرجال القرية كلهمُ أعداء البوم

لكن المرأة.. لا !!

قد كنت أسأل نفسي:

لِمَ يجري كلُّ رجال القريةِ

خلف البومةِ رجمًا بنعالهمُ – حفاةً؟!

***

لم أعلم فلسفة البوم

ولم أعلم ينبوعَ الكُرْهِ

لكل البوم بقلب رجالٍ ما أطيبهم !!

الآن تعلمتُ سراديب البومِ

وأجناسَهْ،

فلسفةَ البوم وكُره رجال القرية له

أصبحتُ أربي بومة

مثل جميع المنخدعين لتوهمُ، أو منذ سنين

مَن تركوا أزمان صباهم

وتطلّع قلبهمُ للعُشٍّ – كما تحكى الأفلام العربية

لعن الله الأفلام العربيةَ :

من يطبخها، من يأكلها !!

قيل : العش يغرد بالعصفورة أنقى

فاختار الجدُ عُصيفورة

من بين عصافير ضياء منعشة للرغبة

تهفو النفس لقضمات منها

ورجال مدينتنا – لعن الله رجال مدينتنا

القاهرة الحبلى –

قالوا إن الله سيرسل للعصفورة رزقا

أنشئ عُشك لا تجْنِع

وأقمت العش : صفائح من قلبى

وشبابيك من النبضات

وباباً للأيام القادمة يمد جناحيه

ويعزف نايا

يحكى عنى وأنا وحدى

بين خرائب نفسى أسعى

لا يطرق قلبى غير الحزن الرابض فيه

وأصلى للجسد المبهم

فى أحضان امرأةٍ، وامرأتين، وعشرين

أتذوقُ .. لا طعمَ .

وأشرب .. لا رِیًّ

وأسرح فى النهدين .. أتوه بهمى

لا أرجع إلا ويداى معمرتان

بنهدين جديدين

ألتهمُ .. وجوعى يتوحش

***

ورجال مدينتنا - لعن الله رجال مدينتنا

القاهرة الحبلى !!

قالوا كلٌّ منا رَبَّى عصفورة

والعش الآن عمارٌ، ويزقزق

ربَّيتُ العصفورة يوما أو يومين اثنين

وكأن التغريدَ عصافيرٌ فعلا

وجناحاها نمنمتان من الرقةِ

عيناها طاعاتٌ لا تعرف: لا

فى اليوم الثالث للعصفورة

أضحت بومة

وبمنقارٍ يلقط يوميا

عامًا من عمرى

حلمًا من عمرى

وقصيدةَ شعرٍ كنت عزفتُ

كليمات منها

***

أصبحت الآن ككل رجال مدينتنا

تربيةُ البوم لنا قَدَرٌ

وتعلم إدراكى بعد دخول السردابِ الأبدىِّ المظلمْ

لِمَ كان رجالُ القرية يرتجفون

إذا شافوا البومة

وحفاة يجرون وراء البومةِ

يرمون نعالهمُ !!!) (٧٢)

المسلمات و الحقائق البسيطة يعيد الشاعر تقديمها كما لو كانت كشفا جديدا للمتلقى فالبومة أنثى وليس هناك بومة ذكر، لكن أحداً لم يتوقف عند هذه الحقيقة ثم يطور الشاعر فكرته فيرصد موقف أهل القرية - والقرية هنا تعنى الأصالة والبساطة والنقاء والصدق- من البوم الذى لا وجود له إلا حيث الخراب والدمار، فرجال القرية كارهون للبومة ويطاردونها بكل ما يملكون حتى الأحذية وقد كان فى طفولته يتساءل لمَ كل هذا الكره للبومة ؟! صحيح أنها شامتة فرحة بكل أذى يحل بالقرية وصحيح أن حياتها الخراب، لكن أشياء كثيرة من الطيور والحيوانات والحشرات تعيش نفس حياة البومة ولا تتعرض لكراهية

رجال القرية على وجه التحديد ومطاردتهم، فلماذا البوم ؟! ويلفت نظر الشاعر كذلك فى طفولته أن النساء لا يطاردن البوم ولا يحملن له كل هذا الكره وتستمر هذه التساؤلات الساخرة والمرة فى الوقت نفسه وتنمو وتتضخم مع نموه هو نفسه ومع انتقاله من الريف إلى المدينة ليحاصر بالخدعة الكبرى: الحب والزواج وتكوين العش وإلى آخر هذه المفاهيم الاجتماعية التى ساقه إليها أو دفعه من تورط فيها من قبل، كأن الرجال المتزوجين أصبحوا حاقدين على غير المتزوجين فيدفعونهم دفعًا لينالوا قسطًا من هذا السم الزعاف المسمى بالزواج . إنه وهم الجنة الذى انخدع فيه الشاعر وعاشه ثلاثة أيام فقط ثم تحول العصفور : الزوجة إلى بومة منوحة وحينها تكتمل البنية الدائرية للقصيدة فيعود الشاعر إلى حيث كراهية الرجال للبومة ومطاردتهم لها وقد انضم واقعيا إلى خالعى النعال.

(هذه القصائد " لحظة"، "علاقات زوجية"، " تربية البوم"، نمط مبتدع وجديد فى فنون الهجاء لم يسبق إليه أحد حسب معرفتنا، فحينما تقرأ مثل هذه الأعمال فأنت واقع تحت تأثيرها دون شك وكاره لما يكره الشاعر وساخط على ما سخط دون أن يضخم أنف الزوجة أو يصبغ جلدها بالسواد أو يورم عينيها. إن الشكل عنده لا قيمة له فقد تكون الزوجة هنا فاتنة الجمال لكنها فى أعلى درجات القبح : قبح الطوية، قبح

النفس، قبح العقل، لا بذاءة هنا ولا خجل يتعرض له قارئ هذا الهجو الزوجي الفريد. وربما كان السبب هو احترام الشاعر للمرأة بصفة عامة بل وتقديسه لها.. فهن لديه جميلات بريئات إلا من تنغص عليه حياته فقط فهي الجديرة بالتحقير ويمكن أن نفهم كثيراً من هذه الرؤية عبر دواوينه التي صدرت(٧٣) وكذلك كتابه الكامل حديث النساء(٧٤).

هذا المصير الذي وقع فيه الشاعر ودفعه إليه المجتمع في " تربية اليوم" لم يرغب أن يدفع إليه غيره، بل يحس بالإشفاق على من يقع في هوة الزواج، حتى ولو كان هذا الإحساس مجرد موقف سلبي راصد للطريق إلى الهوة كما قال في قصيدته "عصفورة.. وبيت" يقول:

هنالك يجلس زرزور حلم و زرزورةٌ

تغرد في حضن وجدٍ تناثرَ من فيهِ

من عينيه

تدنو . . ويدنو

يبثان قلبيهما لوعةً

ويقنصُ من دقاتها نبضةً

يذوبُ بهاءُ السعادة فوق الشفاه

فيغرق أذني

أنا الحاقدُ الحاسدُ

تمنيتُ لو . . . . .

***

هنالك تجلسُ أنثى ، ذكرْ

تحاورَ حرفٌ وحرفٌ

وحُلمٌ وحُلمٌ

ورغباتُ بيتٍ يقام الآنَ

على طللٍ زالَ من أزمنةْ

هي الأنثى أُطلقَ منها القيود

هو الذكرُ طَلّقَ من غيرها قيدَها

هما الآن يقتربان من حلمِ بيتٍ جديد

وقيدٍ جديد

لم يشتعل – بعد – فيه الصدأ

تهبُّ، تدبُّ، تدلَّى الدلالُ

على خطوها

وخدرٌ يشعُّ من الخصرِ

والصدرِ والمرمرين

وبينهما جبلٌ من الأقحوانِ،

الحرير، الجحيم، النعيمِ

الملغَّمِ بالشهوةِ المائجةْ

وقد مغنط القلب – قلبى – فشب إليه

ولم يبق منى على مقعدى

سوى الحقد أن هنالك

من يستبد قريبًا بهذا الجحيم النعيم وحيدا

أنا الحاقد الحاسد المترقب

تمنيت أن.......

***

هنالك عاصفةٌ، عاصفٌ

تهبُّ عليه، يهب عليها

تقول : عليكَ.. يقول: عليكِ

تبصُّ يساراً، تبصُّ يميناً

وتبصقُ، يبصقْ !!

أنا الحاقدُ الحاسدُ الآن وحدى

تمنيتُ.. لا.. لا أتمنى !!!(٧٥)

لقد راح كل منهما ينقش ظل الهوى والعشق على ثوب اللقاء الأول، كان الوجد يتناثر إلى درجة أثارت أحقاد الشاعر الصريح وتمنى لو أنه يقتنص هذه المرأة التى تستعرض سحرها أمام عريسها أو من يجلس معها والشاعر جالس عن قرب منهما وشيئًا فشيئًا تتحول عواطف الرجل والمرأة إلى عواصف ثلجية باردة تهب عليهما بعد أن تحول الكلام من العشق إلى الزواج بمراسيمه وشروطه فوقعت أول حالة نكد فى فترة ما قبل الزواج وكانت موجة النكد أعلى من حلم الزواج فطمسته .. وأنقذ كل من الرجل والمرأة وإن لم يسلم وجه كل منهما من بصقة الآخر .. وسلم الشاعر كذلك من رغبة اقتناص هذه المرأة الفاتنة .. وإن لم يسلم العريسان من عين الشاعر الحاسدة الراصدة لكل همسة وهفوة وبصقة أيضاً.

هذا نموذج آخر لهجاء مشروع الزوجية، أو الزيجات "تحت التأسيس" وربما تستكمل لنا حلقة ناقصة فى فهم الشاعر حزين عمر للزواج، كعلاقة اجتماعية، إنها علاقة خطرة تهدم أكثر مما تبني.

لو كان لنا أن نتوقف عند سمة أخرى جديدة فى هجاء حزين عمر غير " نظافة" هذا الهجاء وعدم تعرضه للجسد البشرى أو للمفردات المقذعة الفاضحة فإننا لا بد أن نلمح إنسانية هذا الهجاء وشموليته، بحيث يبدو كما لو كان يهجو عصراً بكامله لا فرداً بعينه يعيش هذا العصر، وربما كان موقف الشاعر فى هذا السياق.: أن البيئة هى التى تصنع الإنسان وهى التى تبث فيه بذور الشر أو الخير وتحدد معالم طريقه فى الحياة وسلوكه تجاه الآخرين.

هنالك موقف آخر يطرح تساؤلات كثيرة.. كيف يبدو الشاعر مبهراً كذلك إذا تغزل وشبب ؟ إنه فى كلتا الحالتين يصعد أعلى ذرى الإبداع الشعرى.. ألا يبدو الأمر متناقضًا هنا ؟! أم أنه يعود إلى المقولة القديمة: أعذب الشعر أكذبه.. أم إلى ما يمكن أن يقال من أن أعذب الشعر أصدقه؟!

نظن المقولة الأخيرة هى الأقرب إلى روح الشاعر وشعره فهو يتلبس كل حالاته ولحظة إبداع قصيدته لا يعيش غيرها فإذا أحب : أشعر، فهو كائن هلامى محب فقط لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتحدث.. إنه عشق خالص، و إذا كره كان على الوجه النقيض من كل

هذا، إنه كون من ألغام الكراهية متفجر فى وجه من يبغض، والطريف كذلك أنه فى حياته العادية ليس هكذا.. فحياته شىء كواقع معيش وحياته الشعرية شىء آخر، فكأن حزين عمر شخصان اثنان منفصلان تماما وإن تماسا من حين لآخر فى بعض المواقف والمواقع. وهو يتماس كذلك مع صمويل بيكت فى روايته "الحب الأول والصحبة"[(٧٦)] والتى حاول أن يبحث فيها عن الصلة بين الموت والحب، أو بين المقابر والزواج، وهذا هو عالم بيكت، عالم اللاسببية أو اللامعقول وهو تلك الثنائيات اللامعقولة وغير المتوقعة التى يلجأ إليها ليبرهن للقارئ أن العالم من حولنا لا معقول. واللامعقول عند حزين عمر هو الجمع بين عذوبة الغزل ورقته للمرأة المحبوبة المقدسة لديه وعمق ومرارة الهجاء للمرأة الزوجة.. وإن كان بيكت ظل يبحث عن علاقة المقابر بالزواج فإن حزين عمر يبحث عن العلاقة بين الزوجة والنكد الذى هو مرحلة أسبق للمقابر.. وفى كل الأحوال أظننا المستفيد الأول لهذا البحث الدائم خصوصًا فى حالة وجود مثل هذا التوثيق الرائع لمشروع شعرى جدير بالدراسة.

مثالب

أيبدو الشعراء الأزواج غير موضوعيين وهم يفضحون مثالب الزوجات؟! أهم كذابون طبقا لمقولة: أجمل الشعر أكذبه؟! لا شك فى أن الشاعر بالمفاهيم الأخلاقية كاذب بالسليقة، ومتجرد من كل موضوعية وغارق فى الذاتية والنرجسية، وإن لم يكن كذلك فليس بشاعر، ويمكنك أن تضيف مثالب أخرى فى الشعراء الأزواج وغير الأزواج إذا وزعت مثلبة واحدة منها على قبيلة كاملة؛ شوهتها، هنالك النفاق، والشذوذ، والزندقة، والسكر.. وشتى صنوف التحلل ولننظر إلى من كانوا يسمون أنفسهم بعصبة المُجان من أمثال : والبة بن الحباب، وديك الجن، ومسلم بن الوليد وبشار بن برد، وأبى نواس، ثم ابن الرومى والمتنبى وحتى المحدثين أمثال عبد الحميد الديب، فهذه العيوب الأخلاقية ليست عيوباً بمفاهيم الفن، كما أنها قد لا تطفح على الفن نفسه فيكتب الشاعر المنفلت مثلاً قصائد دينية تخشع لها الجبال على الرغم من أنه هو نفسه غير خاشع ولا متبتل. فلننظر لقصائد شوقى الدينية الشامخة، بل ولننظر إلى قصائد أبى نواس نفسه الضارعة إلى الله، هنالك إذن فصل بين الشعر والشاعر.. أحياناً وقد لا يحدث الفصل حيناً، ونسلم فى كل

الأحوال بأن الشاعر ذاتى النظرة والأحكام فى قصائده الغنائية.. فما الذى يضع الزوجة تحت طائلة عقاب الزوج الشاعر، وتحت مقصلة لسانه البتار؟! ما يضع الزوجة فى يوم الحساب هذا؟

إنها مثالب تعشش داخل هؤلاء الزوجات، أكثرها فطرى وبعضها مكتسب، مما يعد مثلبة فطرية مقولة الحطيئة فى زوجته:

أطوّف ما أطوّف ثم آوى   إلى بيت قعيدته لكاعِ[٧٧]

واللكاع هى المرأة الحمقاء.. فما أصعب على الرجل أيًا كانت مهنته أو خصاله من أن يكون نهاية تطوافه هو المرأة الحمقاء البلهاء فما بالنا لو كان هذا الزوج شاعراً نواقةً لكل جمال منظور أو جمال عقلى، وياله من تعذيب يُلقَى فيه الشاعر مهما بعُد ومهما طاف.. فلا بد أن له مأوى وهو لأجل هذا مقدر عليه أن يعذب بحمق زوجته، ولذا فهذا المقر الذى يجمعهما لم يسمه الشاعر منزلاً ولم يسمه مسكنًا وقد قال: " آوى " أى من المأوى ولم يقل أنزل أو أسكن كأن النزول ربما فيه معنى الاختيار، والسكن فيه معنى الدعة والراحة وليس هو هنا بمختار ولا بمستريح بفعل الحمقاء التى يأوى إليها، وليس بعيداً عن هذا الجو مسمى حديث هو مساكن الإيواء فلم يقولوا منازل أو مساكن واكتفوا بها، بل وصفوها بالإيوء لما تعنى من جبر وتدنٍّ.

علينا إذن أن نكره زوجة الحطيئة هذه كما كرهها هو وأورد أقوى المبررات فى بيت واحد.

لا تقل إن الحطيئة نفسه كان بذيئًا شتامًا لم يدع أحداً إلا وشتمه وأقذع فى شتمه حتى شتم أمه ونفسه، وإن ما نتوقف عنده هو مقولته فى زوجته ومدى علوها فنيًا.

وقد يبدو هذا الحمق الفطرى كامنًا فى نفس الزوج كمون الجراثيم والميكروبات، حتى يتبدى فجأة فى حياتها الزوجية، فها هو ذا محمد بن بشير الخارجى وقد تزوج "جارية من بنى ليث، شابة وقد أسن وأسنت زوجته العُدوانية، فضربت دونه حجابًا، وتوارت عنه، ودعت نسوة من عشيرتها، فجلسن عندها يلهون ويتغنين ويضربن بالدفوف، وعرف ذلك محمد فقال :

لئِن عانسٌ قد شاب ما بين قَرْنهـــا

إلى كعبها وابيض عنها شبابُها

صَبَتْ فى طِلاب اللهو يوما وعَلقَّتْ

حجابًا لقد كانت يَسيراً حجابها

لقد مُتِّعت بالعيش حتى تشبــعت

من اللهــو إذ لاينكر اللهو بابها

فبيني برغمٍ ثم ظَلّي فربما

ثَوى الرغم منها حيث يثوى نقابها

لبيضاءَ لم تُنَسبْ لجدٍّ يَعيبها

هِجانٍ ولم تنبَحْ لئيما كلابها

تأوّدُ المشى كأن قناعَها

على ظبية أدْماءَ طابَ شبابها

مهفهفة الأعطافِ خفّاقة الحَشَى

جميل محياها قليل عِتابها

إذا ما دعت بنى نزار وقارَعَتْ

ذَوِى المجد لم يردد عليها انتسابها"(٧٨)

وفى الوقت الذى ينبغى أن تميل فيه المرأة إلى السكينة والوقار وقد أسنت تنقلب هذه العجوز إلى اللهو والقصف وتترك زوجها منفرداً لذاته وحيدا فى داره. وقد أساءت التقدير فانقلب عليها وتزوج بمن هى خير منها ولم ينلها غير هذه الأبيات التى تحط منها وتكشف غباءها، والأشد عليها - لو كانت تفقه - أن يمتدح ضرتها الفتاة الصغيرة الجميلة جسداً وعقلاً المؤصلة كذلك حسباً ونسباً.

وليس كل الأزواج الشعراء شتامين للزوجات الحمقاوات فربما عُرف في المرأة حمقها واحتُملت .. فقد "سمع عمر بن الخطاب رحمه الله أعرابيا يقول : اللهم اغفر لأم أوفى. قال ومن أم أوفى؟ قال: امرأتى، وإنها لحمقاء مرِغَامَةٌ " أى مبغضة لزوجها"، أكول لَامَّةٌ " أى أكول طماعة" لا تَبقى لها خامّةٌ، غير أنها حسناء فلا تُفْرك وأمٌ غلمان فلا تُتْرك. قالوا: ودفعوا إلى أعرابية علِكا لتمضغه، فلم تفعل، فقيل لها فى ذلك فقالت : ما فيه إلا تعب الأضراس وخيبة الحنجرة"

هذا النموذج من النساء لا يتسم بالحمق فقط، بل بالكسل أيضا.. فتحريك أضراسها بالمضغ يتعبها، فما بالنا بتحريك يديها وصدرها ورجليها ومؤخرتها"(٧٩).

فالمتعة التى يبغيها الرجل أعلى من عبء حمق المرأة – إنها غلبت الغريزة عليه لأن زوجه أنثى تُمتع وأم تثمر وحاجة العربى إلى متعة الجسد وتخليد الأثر بالأبناء أكبر من كل متعة ومن كل أذى أيضًا. ولسنا الآن بصدد حصر كل عناصر الخلل النفسى فى المرأة من غباء وبلاهة وحمق فطرى فهذا ما لا يمكن حصره لا فى النساء ولا فى الرجال.. إنما نحن نتوقف عند ما أثمره هذا الخلل من إبداع شعرى، وهناك أنماط من هذا الخلل ليست من صنع الطبيعة ولا خاضعة للفطرة منها مثلاً بسلاطة اللسان، ونرى أنفسنا أمام نموذج أعلى فى رد لكمة الرجل بلكمة أشد بل ربما رد كلمته ببصقة على وجهه متجسداً فى هند بنت النعمان بن بشير التى كانت زوجًا لروح بن زنباع "وكان شديد

الغيـرة، فـأشـرفت يومـًا تنظر إلى وفد من جُذام، كانوا عنده، فـزجرها. فقـالت: والله إنـى لأُبغض الحـلال من جُذام، فكيف تخـافنى علـى الحرام فيـهم، وقالت لـه يومًا: عـجبًا منك كيف يُسـوِّدك قـومك؟ وفيك ثلاث خـلال: أنت من جُذام، وأنت جَبـان، وأنت غَيور؟ فقـال لهـا : أما جُذام فإنى فى أرومـتـهـا، وحَسْب الرجل أن يكون فى أرومـة قومـه. وأمـا الجُبن فإنمـا لى نَفس واحـدة، فـأنا أحـوطهـا، فلو كانت لـى نفس أخرى جُدت بهـا. وأمـا الغَيرة فـأمرٌ لا أريد أن أشارك فيـه وحَقيق بالغَيرة من كانت حمقـاء مثلك مخافة أن تـأتيه بولد من غيره فتقذف به فى حجره فقالت:

وهل هنـد(*) إلا مهـرةٌ عربيـةٌ

سـليلـةُ أفـراسٍ تجللـهـا بَغْـلُ

فإن أنجبت مُهراً عريقًا فبالحرى

وإن يك إقراف فما أنجب الفَحل"[٨٠]

هذه حلبة ملاكمة يستخدم الرجل فيها قبضة واحدة بينمـا تستخدم المرأة قبضتين فهو يخاطبها شعرًا فترد عليه شعراً ونثرًا وتفند تلميحاته لها بأنها غير جديرة بالثقة وغير أمينة على الزوج وأنها حمقاء بشتمه هو والتـحـقـيـر منه ثم من أهله، ثم حـتى من عـيـاله القـادمـين الذين سـوف تنجبـهم منه، فـإن كـانوا - كمـا تقـول فى بيتيـهـا - ممتـازين فـهم لهـا بصـفتـها مـهرة عـربية أصـيلة، وإن كـانوا حقـراء ؛ فـحقـارتهم تعـود إلى الفحل : أبيهم، لقد سدت عليه كل المنافذ.

أما امرأة الفرزدق فقد استفزته حين طالبته بحقها الزوجي وقد شاخ الاثنان معا ولم تشخ هي رغبةً .. وحينما كبرا اتهمته بالعجز الجنسي فرد عليها الاتهام باتهام من الجنس نفسه قال:

أنا شيخٌ ولي امرأة عجـوز   تراودني على ما لا يجـوز
وقالت رق أَيرك مذ كبرنا   فقلت لها بل اتسع القفيز[٨١]

المرأة هنا سليطة اللسان في الحق وما وصلنا من سلاطتها جاء عبر الخصم: الفرزدق لا من خلال التلقي المباشر، وقد فند حجتها ثم أفسدها بحجة أقوى.. ومن الطريف أن تنتقد المرأة مثيلتها فيما يتعلق بالممارسة الجنسية فقد "قالت امرأة من أهل الكوفة : دخلت على عائشة بنت طلحة فسألت عنها، فقيل هي مع زوجها فسمعت شهيقًا وشخيراً لم أسمع مثله ثم خرجت وجبينها يتصبب عرقًا، فقلت لها : ما ظننت حُرة تفعل هذا بنفسها! فقالت : إن الخيل تشرب بالصفير"[٨٢]

جاء رد عائشة بنت طلحة هادئًا باردًا ويبدو أنها تملك ضميراً يقظًا تجاه زوجها وحقه في المتعة كما أن الخيل تشرب وتصدر صوتًا وهي كذلك.. تمارس عملاً طبيعيًا لا يحقرها ولا يسوؤها ويبدو أن هذه العلاقة الخاصة جداً بين الرجل وزوجته تحتل مكانًا بارزًا في توتر العلاقة بينهما، فقد قال عمار ذي كُبار في زوجته دومة بنت رباح بعدما طلقها وتزوج بأخرى :

إنَّ عِـــــرسى لا هـداهـا	الـــلـــهُ بـــنـــتٌ لـــربــاح

كـلّ يوم تُفـــزعُ الجُــلاسَ	منهـــا بـالصّـــيـــاح

ورُبُـوخٌ حـــــين تُؤتَـى	وتَـهـــــيـــا للنكـاح

كَلْـبُ دَبَّاغٍ عَـــقـــورٍ	هِرٌّ من بَعْـــدِ نُبَـــاح

ولهـا لونٌ كـداجى الليلِ	مِنْ غَــيْـــرِ صَـبَـــاح

ولسـانٌ صـارمٌ كـالسـيفِ	مـــشـــحـــوذِ النواحى

يقطعُ الـصـخـرَ ويفـر	يه كـمـا تَفـرِى المسـاحِى

عـــجلَ اللـهُ خـــلاصى	مِن يديهـــا وســـراحى

تتـعبُ الصـاحبَ والجـا	ر وتـبـــــغى من تُلاحى

زعــــمتْ أنى بـخــيـلٌ	وقـد أخنَى بى سَـمَـاحى

ورأت كـــفـى صِـــفـــراً	من تلادى ولـقـــاحـى

كـــــذبَتْ بـنـتُ رباحٍ	حـــينَ هَـمَّتْ باطراحى

حـــاتمٌ لو كـــانَ حـيًّـــا	عـــاشَ في ظلِّ جنـاحى

ولـقـــد أَهلكتُ مـــالى	فى ارتيـاحى وسـمـاحى

ثـم مـا أبقـيتُ شـيـئًـا	غـيـرَ زادى وسـلاحى(٨٣)

فمجرد أن طلقها واستراح .. كشف بسوءاتها الجنسية والجسدية، ثم عرج على سلاطة لسانها وكذبها واتهاماتها له بالبخل ودافع عن نفسه وكأنه جردها من أية صفة طيبة .. جسدا وعقلا .. إنسانًا وأنثى.

لكن بعض الأزواج يبدو على الوجه النقيض من هذه الحالة المكشوفة والفاضحة للزوجة، فها هو ذا جران العود يصرح بكراهيته للمرأة التى فى البيت – على طريقة الحطيئة – لكنه لم يفضحها كما يفضحها فى علاقته الخاصة به، إنما برر هذه الكراهية بأنها هى كذلك تكرهه :

يقولـون فى البيت لى نعجة   وفى البيت لو يعلمون النمر

أحبى لى الخيـــر أو أبغضـــى   كلانا بصـــاحبـــه ينتظـــر(٦٤)

وربما نبدو فى حاجة إلى نماذج موثقة لبذاءات النساء أنفسهن ولن نعدم الحصول على مثل هذه النماذج وإن توقعنا ضياع الكثير منها لأن المرأة العربية لم تكن قادرة على التجوال فى الأسواق لعرض شعرها كما يفعل الرجال ولا تجد تحت يديها راوية ينقل ما تفيض به قريحتها إلى الآفاق وحتى لو وجدت الراوية وخرجت إلى الأسواق والتجمعات فهى فى حرج من شتم زوجها فإذا شتمته فلن تقذع وقد لا تصرح إلا بالقليل مما تعانى، ومما تدخر ومما تستطيع أن تعبر، وحلقة أخيرة من حلقات الحصار قد تفرض عليها حين ينفذ شعرها من كل هذه الأسوار ويصل إلى الناس، فيكرهونها وينقلبون عليها وينبذون مقالاتها فلا تُحفظ

ولا تُروى إلا نادرًا لأن من يَحفظ ومن يَروى غالبًا هو الرجل، وهو الزوج، أى زوج.

وعلى الرغم من ذلك فقد وقع تحت أيدينا بعضٌ من هذه النماذج منها بيتا عائشة بنت عثمان بن عفان وقد قالت فى هجاء أبان بن سعيد بن العاص حين خطبها ونزل (أيلة) وترك المدينة :

نَزَلت ببيتِ الضّبِّ لا أنت ضائر عدواً ولا مستنفعًا أنت نافع(٨٥)

هى تكرهه حتى قبل أن يقترنا وتشتمه قبل الزواج على سبيل المران لتدريب لسانها.

أما حفصة بنت المغيرة فقد كانت فى بيت زوجها فعلا، حنطب بن عبد الله المخزومى فقالت فيه:

ولا تأمنن الدهر بعدى حــــرّة وقد نكح البيض الحرائرَ حنطبُ

لئيم لسوادِ الجواعــر جعــدة على أهلهـــا مما تُصـــرُّ وتحلب

تطاومَها الأنساب حتى تردّها إلى نسب فى آل دمَّةَ مطنــب(٨٦)

فهى أصيلة ابنة أصلاء وهو ليس كذلك من وجهة نظرها، وهو هجاء نسائى نظيف، فلا أظن المرأة تستطيع مثلاً أن تتوقف كثيرًا وتعلن على الملأ العجز الجنسى لزوجها. أما الرجل فهذا الاتهام جاهز غالبًا فى هجاء زوجته.

توقفنا إذن عند هذه المثالب الفطرية والمكتسبة للزوجة وقد وردت أحيانا على لسان الشاعر وأحيانا أخرى على لسانها هى وكانت بذاءتها ختاما لهذه المثالب ونرى أن هذه البذاءة أو هجاء المرأة لزوجها تحمل وجها آخر غير الوجه الحقيقى لهذه المرأة، إنها تعنى وجود شاعرات عربيات وتعنى إحساسًا بالمساواة بين الرجل والمرأة فى تراثنا العربى بل وربما رأت المرأة أنها الأعلى والأفضل من الرجل كما أشرنا من قبل ويعنى هذا أخيراً وجود مساحات من الحرية للمرأة العربية.. تستطيع من خلالها .. لا أن تعبرَ عن نفسها فقط بل أن تنتقد الطرف الآخر وتهاجمه إلى حد البذاءة.

ناشزات .. خائنات

لم نربط بين الناشز والخائنة ؟! هذه وتلك خروج على الحياة الزوجية بالمفاهيم الاجتماعية المتوارثة منذ آلاف السنين فالمرأة ملك زوجها جسداً وعقلاً ونفساً.. تمرد العقل والنفس على الزوج يعنى أنها أصبحت ناشزا وتمرد الجسد يعنى أنها قد خانت، أى أنها انفلتت من بعض أسره أو من كل أسره.. فكلتا الصفتين موصولة بالأخرى، ولنشوز المرأة أسباب وأشكال، منها ما هو غير معلن ولا ذنب لها فيه كألا يرضاها الزوج فيبدى نفوراً وبالتالى يتسرب النفور إليها من الزوج فتكون القطيعة، ولا شك أن القطيعة هنا ستؤدى إلى تمزق الثياب الإنسانية وإزالة الحجب عن هذه الزوجة الناشز إلا فى حالات نادرة يحترم الرجل طليقته أو زوجته السابقة فلا يشهر بها ومن هؤلاء المحترمين الأعشى الذى تزوج من بنى عنزة ابن أسد بن ربيعة بن نزار ويقال إن عنزة هذا من هِزان، فلم ترضه هذه المرأة فطلقها وقال فيها :

بِينى حَصَانَ الفرجِ غيرَ ذميمــةٍ ... وموموقة فينا كذاك ووامقَةْ

وذُوقى فتَــى قــومٍ فإنِّى ذائــقٌ ... فتاةَ أُناسٍ مثلَ ما أنتِ ذائقة

لقد كان فى فتيانِ قومِكِ مَنْكَحٌ   وشُبّانِ هِزّانَ الّطوالِ الغَرانِقةَ

فبِينى فإنّ البَيْن خيرٌ من العصا   وإلا تَرَىْ لى فوق رأسك بارقة

وما ذاك عندى أن تكونى دنيئة   ولا أن تكونى جئتِ عندى ببائقة

ويا جارتا بينـــى فإنك طالقـــة   كذاك أمورُ الناس غادٍ وطارقة[٨٧]

هذه حالة تكاد تقف منفردة أمام حالات كثيرة من بذاءة الزوج الشاعر فى حالات الزوجة الناشز فها هو ذا أبو موسى وقد طلق امرأته يقول فيها:

تجهزى للطـــلاق وارتحلـــى   فذا دواء المجانب الشـــرسِ

ما أنـــت بالحنـــة الولـــود ولا   عندك نفع يرجى لملتمـــس

لليلتى حيـــن بنـــت طالقـــةً   ألذُّ عندى من ليـلةِ العُرُس

بـــتُّ لديهـــا بَشـــرٌ منـــزلة   لا أنا فـــى لـــذة ولا أُنُـــسِ

تلك على الخسف لا تطير لها   وإنى ما يســـوغ لى نَفَـــسى

فى بعض الأصول "ذل"

فى بعض الأصول " وهذه ما يسوغ"

الحنة هى الزوجة مأخوذة من الحنين[٨٨]

وهذه الأبيات هى الدرجة الأولى فى سلم الهجو للناشزات فقد اكتفى الشاعر بإظهار المثالب العامة كالشراسة والخشونة وفقدانه للراحة النفسية فى حضرة هذة الزوجة، إلى درجة أن ليلة طلاقها تحولت لديه إلى ليلة عرس.

لكن آخرين يصرحون بمعايب الناشز فيقول : الأضبط بن قريع فى امرأة تزوجها على مال ووصيفة ثم نشزت عليه ففارقها ولم يُعطها ما كان ضَمِنَ لها فلما احتملت أنشأ يقول:

أَلَمْ تَرها بانت بغير وصيفة إذا ما الغوانى صاحبتها الوصائفُ

ولكنها بانت شموسٌ بَـزِيَّةٌ مُنَعَّمَةُ الأخلاق حَدْباءُ شَارِفُ

لو انَّ رسولَ الله سَلَّمَ واقفا عليها لَرَامتْ وَصْله وهو وَاقِفُ(٨٩)

إن الزوجة التى طلقها لم تفِ بما وعدت به من مال ووصيفة أى أنها كاذبة العهد وحدباء وغير محصنة إلى درجة أنها تُسلم نفسها لأقرب طارق، ثم تتزايد نبرة الفضح لتصل إلى ما يشبه "الردح" بين هذا الأعرابى وزوجته.. لقد ورد لدى الأصمعى أن أعرابيا قال "فى امرأة تزوجها وقد تزوجت قبله خمسة وتزوج هو قبلها أربعًا فلاحته يومًا فقال فيها:

لو لابس الشيطان ما أُلابس أو مارس الغُولَ التى أُمارس

لأصبح الشيطان وهو عابسُ زوَّجها أربعةٌ عَمارِس

فانفلتوا منها ومات الخامسُ وساقنى الحَيْنُ فها أنا السادس.

لاحته : نازعته

عمارس : جمع عمروس وهو الجمل إذا بلغ النزو.. وقيل إذا أكل واجتر.. يريد أربعة مكتملى الشباب أقوياء"(٩٠)

هو هروب من الجحيم الذى لا يحتمله إنسان، إن الشيطان نفسه لو تزوج هذه الغول لعبس وحزن ويبدو أنه لا يصلح لها فعلا إلا العفاريت فقد هرب منها أربعة أزواج ومات الخامس على يديها ووقع السادس فى الكارثة إلا أنه تدارك نفسه وهرب منها بعد أن نشزت عليه أو هاجمته. وأعاد تكرار هذا المعنى في أبياته :

بُوَيْزِل أعوام أذاعت بخمسة — وتَعْتَدُّنى – إن لم يَقِ الله – ساديا

ومن قبلها غيَّبت فى التُرب أربعًا — وأعتدُّها مذ جئتها فى رَجائيا

كلانا مُطل مُشرِفٌ لغنيمة — يراها ويقضى الله ما كان قاضيا(٩١)

حتى إن قارئ هذا الإنتاج يرى المرأة أصبحت تشبه الدهر نفسه تفنى الخلق واحدا وراء الآخر ولا تفنى هى. ولا يتوقف الشاعر عند تجريح الناشز وفضح أشكال نشوزها ودوافعه، وقد يتجاوز هذا إلى فضح أهلها أيضا ويُنفر الناس من بنات جنسها وقبيلتها جميعا.. فقد "نشزت رُهَيْمة بنت غنىّ بن درهم النمريَّة بالفرزدق فطلقها، وقال يهجوها :

لا ينكَحَنْ بعدى فتىً نُميرِيَّةً	مرمَّلة من بعلها لبعادِ
وبيضاءَ زعراء المفارق شَخْتَةً	مولَّعةً في خُضرةٍ وسوادِ
لها بَشَرٌ شَثْنٌ كأنَّ مَضمَّهُ	إذا عانقت بعلا مَضَمُّ قتادِ
قرنتُ بنفسى الشؤمَ فى وِرْدِ	حوضها فجُرِّعته ملحًا بماء رمادِ
وما زلتُ حتى فرَّق الله بيننا	له الحمدُ منها فى أذًى وجهادِ
تجدِّد لى ذكرى عذابِ جهنَّم	ثلاثًا تمسِّينى بها وتُغادى(٩٢)

فلم يدع شكلاً من أشكال القبح إلا وصمها به، هى دميمة الخَلق والخُلق وقد حمد الله أن عتقه من إسارها بل جحيمها وأضحت فى العالمين سبة فى جبين أهلها جميعا بنى نمير. فالهاجى ليس منكوراً بين الشعراء أنه الفرزدق الذى لا يدركه ولم يدركه فى الهجاء سوى جرير.

إذن الأزواج الذين تعرضوا لأزمة نشوز زوجاتهم ليسوا عاديين إنهم شعراء؛ حداد اللسان، والمرأة على وعى بهذه الحقيقة فكيف تعرض نفسها للبذاءة وتفضح خصوصيتها حقًا وباطلاً؟!

لا شك أن الدافع للنشوز أقوى من خشية الهجاء ويبدو أن وراء كل نشوز عجزًا ما، قد يكون عجزًا جنسيًا أو آفة أخرى لا تحتملها المرأة فى الرجل كالبخل.. أو أن يشعل النار فى جسدها بالغيرة وهناك بعض النساء لا تشتعل للغيرة وإنما تتجمد مشاعرها فتنفر من الطرف الآخر نفساً وجسداً.

هذا إذا تمرد العقل والنفس ونشزت الزوجة.. فماذا لو تمرد الجسد وخانت الزوجة ؟! وقبل أن نسأل هذا السؤال علينا أن نسأل لماذا تخون الزوجة ؟!

أحيانا تكون خيانتها للرجل بدافع من الرجل ذاته وها هي ذي "دومة بنت رباح زوجة عمار ذي كبار الشاعر بعدما تخلقت بخلقه في شرب الخمر والمجون والسَّفه، حتى صارت تُدخل الرجال عليها وتجمعهم على الفواحش. ثم حجَّت فقال لها عمار:

اتَّقِ الله قــــد حججـــت وتُوبـــي ... لا يكونَنَّ ما صنعت خَبالا

ويك يا دُومُ لا تدومي على الخمـــر ... ولا تُدخلـــي الرجـــالا

إنَّ بالمصـــر يوســـفا فاحـــذريه ... لا تصيرى للعالميـن نكالا

قد مضى ما مضى وقد كان ما كان ... وأودى الشبابُ فيك فزالا

فضربته دُومة وخرّقت ثيابه ونتفت لحيته وقالت :

أتجعلني غرضاً لشعرك ؟! فطلقها واشترى جارية حسناء، فزادت في أذاه وضربه غيرة عليه، فشكاها إلى أمير الكوفة يوسف بن عمر، فوجه إليها بخدم من خدمه وأمرهم بضربها وكسر نبيذها وإغرامها ثياب عمار، ففعلوا ذلك، وبلغوا منها الرضا لعمار"(٩٣).

الزوجة هنا استمدت شراسة الطبع من ضعف الزوج ذلك الذى شاركها المجون وشرب الخمر وبعدما تطبعت بطبعه هجاها وشهر بها بعد أن وصل فحشها إلى الخيانة الجسدية .. لكنها لم تسكت له فانتقمت منه على طريقة الأنثى بتمزيق الثياب ولو طالته لمزقته هو نفسه ولكنها رغم ذلك تغار عليه، فها هى ذى تنتف له لحيته وتفعل به ما لا يفعل ولكنه عندما يطلقها ويشترى جارية أجمل منها تزيد فى أذاه غيرة عليه .. إنها تحمل تناقض المرأة بين الحب والكراهية رغم خيانتها له .. وقد كان تصرف عمار استكمالا لضعفه أمامها فهو لم يقدر عليها فشكاها لأمير الكوفة الذى أمر بضربها وكسر نبيذها وتغريمها ثمن ثياب عمار .. هى خائنة شرسة تعلن خيانتها وشراستها .. وهو غير نادم على طلاقها بل سعيد بأنه نجا منها.

نوع آخر من النساء قد تجبرها الظروف على الخيانة ثم تستعذبها وتجد فيها متعة لا تجدها مع الزوج وتدفع ثمن تلك المتعة من حياتها بل ربما حياتها نفسها، فها هو الهيثم بن عدى يقول: "غزا ابن هبولة الغسانى الحارث بن عمر آكل المرار الكندى فلم يصبه فى منزله، فأخذ ما وجد واستاق امرأته. فلما أصابها أعجبت به، فقالت له: انج، فوالله لكأنى أنظر إليه يتبعك، فاغراً فاه كأنه بعير آكل مُرار. وبلغ الحارث، فأقبل يتبعه حتى لحقه، فقتله وأخذ ما كان معه وأخذ امرأته، فقال لها: هل أصابك؟ قالت : نعم والله ما اشتملت النساء على مثله قط. فأمر بها

فأوثقت بين فرسين، ثم استحضرها حتى تقطعت.. ثم قال:

كل أنثى وإن بدا لك منها آية الود حُبها خيتعور

إن مـــن غـــره بـــود بعد هِند لجاهلٌ مغرور[٩٤]

هى زوجة فارس مغوار شاء لها حظها أن تقع ضمن السبايا وعندما واقعها ابن هبولة الغسانى أعجبها واستمتعت به حتى إنها نبهته وحذرته عندما سمعت صوت بعير زوجها لكن القدر لم يمهله الوقت للفرار فقتله زوجها واستردها وسألها إن كان قد عاشرها أم لا ؟ فكان ردها مكراً وغدراً دفعت ثمنه، فها هى تقول له إن النساء جميعا لم تعاشر مثله وكأنها تعير زوجها الفارس بعدم فحولته فما كان من كيدها به إلا أن أوثقها بين فرسين وأمر بتمزيقها وتقطعت وأنشد بعد ذلك حكمته بأنه على الرجال ألا تثق بنسائها فمن يثق بامرأة بعد ثقته بهند وبعدما فعلت هى لجاهل مغرور وهناك من يؤيد هذا الكلام الذى أصبح حكمة يتحاكى بها الحكماء الذين قالوا: "لا تثق بامرأة، ولا تغتر بمال وإن كثر. وقالوا : النساء حبائل الشيطان .. وقال الشاعر :

تمتع بها ما ساعَفتك ولا تكـنْ جزوعا إذا بانت فسوف تبين

وخنها وإن كانت تفى لك إنهَا على مدد الأيام سوف تخون

وإن هى أعطتك الليان فإنها لآخر من طُلابِها ستلين

وإن حلفت لا ينقضُ النأىُ عهدها فليس لمخضوبِ البنانِ يمين

وإن أسبلت يوم الفراق دموعهـا فليس لعمر الله ذاك يقين"(٩٥)

ويبدو أن الحكماء الذين قالوا فى المرأة إنها حبائل الشيطان كانوا أزواجًا للحكيمات اللاتى قلن: "يا مآمنة للرجال يا مآمنه الميه فى الغربال" حتى وإن كن حكيمات شعبيات.. ما يهمنا هنا هو قول الشاعر الذى يدعو للتمتع بها وعدم الحزن والجزع عليها إذا فارقته.. بل يدعو لخيانتها.. لأنها خائنة اليوم أو غدا أو بعد غد.. المهم أنها لا بد خائنة مهما حلفت أو بكت، فهى ليس لها يمين وليست دموعها دموعا ولا بكاؤها بكاءً.

وهناك دعوة دائمة بعدم الندم على فراق المرأة الزوجة وكأن الشعراء أجمعوا على ذلك ولا ندرى هل هذا لأنها طعنته فيما لا يقبل أن يطعن فيه بينما هو من حقه توجيه نفس الطعنة فى أى وقت وتوصف تلك الطعنة على أنها فرط الفحولة والرجولة وليست خيانة.

لنر نموذجا آخر غير نادم.. يقول الأصمعى: "كنت أختلف إلى أعرابى أقتبس منه الغريب، فكنت إذا استأذنت عليه يقول: يا أُمامة ائذنى له فتقول: ادخل. فاستأذنت عليه مرارًا، فلم أسمعه يذكر أُمامة، فقلت: يرحمك الله، ما أسمعك تذكر أُمامة ؟ قال: فوجم وجمةً فندمت على ما كان منى، ثم أنشأ يقول:

ظعنت أمامةُ بالتلاقـــى   ونجوت من غُلِّ الوثاق

بانت فلـــم يألـــم لهـــا   قلبى ولم تبك المآقـــى

ودواء ما لا تشـــتهيـــــه   النفس تعجيل الفراق

والعيش ليس يطيب من   إلفين من غير اتفاق"(٩٦)

يا له من أعرابى مهذب يمتلك فلسفة قد لا يمتلكها كثير من المثقفين الذين نعتوا المرأة بحبائل الشيطان فهو هنا قد نفر واستحالت العشرة بينه وبين إلفه كما وصفها.. فطلقها حتى وإن لم تبك عيونه عليها أو يألم قلبه لفراقها.. بل أطلق حكمته البدوية حين قال إن دواء ما لا تشتهيه ولا تحبه هو تعجيل الفراق لأنه لن يطيب العيش والعشرة بين إلفين كرها بعضهما أو اختلفا.. هذا نوع من الثقافة الاجتماعية والنفسية قد لا يصل إليها اليوم أعتى المثقفين، فهو لم يُشهِّر بها وهى لم تلجأ لمحكمة الأسرة، بل تفارقا فقط عندما استحالت العشرة بينهما.

شكل آخر من الخيانة تعرض لها "القتَّال" أسفرت عن الطلاق بينه وبين زوجته وإن خلفت وراءها دليل الخيانة باقيا يذكر الزوج فى كل لحظة كم غافلته زوجته.. يقول القتَّال:

ولمـــا أن رأيت بنى حصيـــن   بهم صنَفٌ إلى الجارات بادى

خلعت عذَارها ولهيتُ عنها   كما خُلِـعَ العِذارُ مـــن الجَوادِ

وقلت لها عليكِ بنى حُصَيْن   فما بينى وبينك من عـوادِ

أناديهـــا بأســـفل وارِداتٍ   نَكِدتَ أبا المسيَّبَ من تنادى(٩٧)

وقد كانت بنت ورقاء بن الهيثم زوجة القتَّال قد ولدت له ابنه "المسيَّب" بعد أن طلقها زوجها عندما رأى عندها رجلاً يدعى جرير بن الحُصَيْن الذى كان جارا لهما.

المرأة إذن لا أمان لها فهى خائنة ماجنة أو ناشز سليطة اللسان شرسة الطباع والخلاص منها هو غاية الشعراء الرجال الأزواج .. ولكن هناك من يرى أن الأنثى بطبعها خائنة حتى وإن كانت أنثى الحمام أو أنثى الحيوان أى حيوان وكأن لسان حال بعضهم يقول كل أنثى خائنة ويا لها من نتيجة غير منطقية أو هى حكم جائر، فالنساء أصناف وألوان وأشكال مختلفة وكذلك الذكور أيضًا، فأصابع اليد الواحدة لا تتشابه فما بالنا بالمخلوقات. يقول ابن قتيبة عن المثنى بن زهير .. قال : "لم أر شيئا من رجلٍ وامرأة إلا وقد رأيته فى الحمام : رأيت حمامة لا تريد إلا ذكرها !! وذكراً لا يريد إلا أنثاه، إلى أن يهلك أحدهما، ويفقدها !! ورأيت حمامة: تتزين للذكر ساعة يريدها !! ورأيت حمامة : لها زوج وهى بمسكن آخر لا تعدوه !! ورأيت حمامة تقمط حمامة، ويقال: إنها تبيض عن ذلك !! ولكن لا يكون لذلك البيض فراخ. ورأيت ذكراً يقمط ذكرا !! ورأيت ذكرا: يقمط كل من لقى ولا يزاوج !! ورأيت أنثى يقمطها

كل من يراها من الذكور ولا تتزاوج !! وليس من الحيوان من يستعمل التقبيل عند السفاد سواه !!"(٩٨)

ها هو ذا المثنى بن زهير يرصد مجتمعا آخر من الطيور ويؤكد أنه لم ير شيئًا في الرجل والمرأة إلا ووجده في عالم الحمام، فهناك الإخلاص المتناهي بين الطرفين فلا الذكر يريد غير أنثاه ولا العكس إلى أن ينتهي هذا الإخلاص بموت أحدهما أو موتهما معًا وهناك حمامة تتزين للذكر ساعة أن يطلبها شأن بعض النساء اللاتي لا يتذكرن أنوثتهن إلا عند الحاجة وهناك الحمامة الخائنة التي لها زوج لكنها تعشش في بيت آخر.. وهناك الشواذ من ذكر الحمام والإناث أيضًا وقد ينتج عن ذلك بيض ولكنه لا يُفرخ.. وهناك دواعر من الحمام، فهي لكل الحمام ولا تتزوج والعكس أيضًا.

هو عالم متماثل بين الإنسان والحمام وربما هناك عوالم أخرى كثيرة تتشابه مع عالم الإنسان.. ولهذا لا نستطيع أن نأخذ حكمًا جائرًا كالذي يقول بأن كل الإناث خائنات أو أن كل ذكر خائن بالطبيعة وإن كانت طبيعة الرجل هي الأميَل للجمع بين أكثر من امرأة ولعل هذا يحتاج دراسة نفس اجتماعية متخصصة ليس هذا مجالها ولا وقتها.

هجاء .. بهجاء

الأدهى من الهجاء ما يبدو أنه لا هجاء، إنه موقف مزدوج ينتقم فيه الشاعر من خصيمته بهجوها من وراء ستار، ويصقل هذا الستار إلى حد أنه لا يبدو هجاء بل هو مديح ما أو على الأقل موقف محايد فينفى الشاعر عن نفسه أنه شتام بذىء، يبدو بريئا فى نظر الآخرين، فمن الذى يستطيع أن يتهم الحسن بن أحمد بن الحجاج بأنه منفلت اللسان وهو يرثى امرأة صديق له سقطت من السطح فماتت حين قال فيها:

عفا الله عنها إنها لو ودَّعَـــــتْ

أجـــلٌ فقيـــد فـــى التـراب مغيَّبِ

ولـــو اعتلَّـت لـكان مصابهـــا

أخـــف علـــى قلب الحزين المعذَّب

ولكن رأت فى الأرض أفعى مجدلاً

علـى قدر غرمول الحمار المشغَّبِ(٩٩)

ظاهر الكلام أن الحسن حزين لهذه الوفاة ويأخذ المتلقى معه فى دوامة الحزن حتى نقع فى المفارقة فى البيت الأخير بأنها سقطت إشباعًا لغريزة.

ومن ذا يلوم جليلة رضا وهى تتهم زوجها بالاستهتار والشر والتوحش وهى تقول فى قصيدتها "أنا والليل":

وتركت بعْدَك فى الصباح ديارى

وأنا على غيظى وثورة نارى

وذهبتُ أشكو منكَ عندَ أقاربى

وبحدَّةِ الإفضاءِ آخذُ ثارى

وعلى الطريق تبخَّرت من خاطرى .

ذكرى الإهانة والأسى والعار

عارضتُ نفسى فى الشكاية مثلما

يتصرف الأزواجُ فى استهتار

وذهلتُ كيف نويت أكشفُ سرَّنا

وحياتُنا قدسيةُ الأسرارِ

وأجـــاب عقلـى يا بنيّـة إنَّـه

رغـم الخلافِ المرِّ ربُّ الـدارِ

ولمحتُ فى قلـقٍ خيـالكَ قائمـا

بينى وبينَ الأهل فى إصـرارِ

وخشيتُ أروى عنك أية هفـوة

لتظلَّ فى الأذهان رمزَ وقـار

وكأنَّما بالأمس لـم تكُ غاضبـا

متوحشا فـى ثورة الأشـرار

سلمتُ فى عجلٍ وعدتُ كما أنا

أطوى بعمق جوانحى أخبارى(١٠٠)

فما يبدو لنا هنا أنه الوفاء منها والإخلاص للزوج وقد سترت عيوبه عن أهلها وإن لم تسترها عن ملايين القراء وعن صفحات التاريخ وإلى الأبد، فيا لها من براءة مدعاة وذكاء ودهاء حينما يبدو الهجو فى غير ثوب الهجو، لكن الدهاء قد خانها حينما واجهت الرجل فى ساحة قتال فكرى مباشرة فى قصيدتها " من المرأة إلى الرجل" ففندت ظلمه وخوفه وادعاءه وكل مثالبه سواء أكان زوجا أم جنس الرجل بصفة عامة .. تقول قصيدتها من المرأة إلَى الرجل:

ماذا تريد؟ ماذا تريد؟ يا أيها الرجل العنيد

يا أيها الرجل الذى لن يستفيد ولن يفيد

إنى أراك مع الزمان حملت لى حقدا حقود

تمضى السنون وأنت أنت تريد تجهل ما تريد

أغرتك (سيكلوجيتى) فمضيت تبحث لا تحيد

عنى.. وعن نفسيتى، عن كنه سرى فى الوجود

وكأننى شىء غريب نادر.. شىء فريد..!

فهناك تحت شجيرة الجميز فى الحقل المديد

وهنا حتى فى الخنادق حيث يحتشد الجنود

لا شىء إلا سيرتى تلهو بها وقتا سعيد

لا شىء غيرى يستفزك أن تقول وأن تعيد

ماذا تريد؟ ماذا تريد؟

إنى إذا أحصيت ما قد قلت عنى لن أجيد

صورتنى عربيدة حينا وشيطانا مريد

ونسبت كل الحادثات إلىَّ من زمن بعيد

فأنا السفالة والنذالة والخيانة والجحود

وأنا حواء أغرت آدم الغر الطريد

وأنا التى سببت قتل عشيرتين من الصعيد

وأنا التى وضعت لضرتها سموما فى الثريد

ولقد أكون أنا التى أشعلت نارك بور سعيد !

ماذا تريد ؟ ماذا تريد ؟

أنا كل شىء فى حياتك إننى شىء مجيد

البيت دونى كالردى والكون كالقبر المديد

والصبر دينى والحنان شريعتى والعطف جود

وأنا بكل كيانى المهزول كالبطل النجيد

أتحمل الآلام والأمراض فى عزم شديد

ولقد تخزك إبرة فتئن كالطفل الوليد

وتكح ، تعطس فى الشتاء كأن جسمك من جليد

وأنا بفستانى القصير وبالسواعد والزنود

من أى ضلع جئت منك فإن ضلعك كالجريد !

ولا نتوقف عند نقاط الخور فى بنية القصيدة، سواء على مستوى المفردات كلفظة (سيكلوجيتى) أو مستوى التركيب الذى يهبط بالجملة الشعرية أحياناً إلى حد الابتذال العامى كقولها "وأنا التى أكلت ذراع طليقها حتى يعود" وكذلك "وأنا التى وضعت لضرتها سموما فى الثريد" ما يشابههما من معان تدور على ألسنة العامة ولم تحورها إلا قليلا .. وكذلك لا نفتش عن جمال السياق فى بعض المواقع كقولها "البيت دونى كالردى والكون كالقبر المديد" .. إنما تشغلنا هنا هذه الوقفة الحاسمة من الرجل وتقييد دعواه عن المرأة ككائن شرير، ولم يذكر أنه الضعيف كالذبابة أمام (شكة الدبوس) أو عطسة البرد.. وفى كل الأحوال هو أصلها فلو صلح الأصل لاستقام الفرع!![١٠١].

ويبدو لنا ونحن نستمع إلى القصيدة أنها تقف على تبة "لضرب النار" ثم تطلق رصاصاتها على ذهن الرجل ونفسيته ومشاعره وتاريخه، أو على أقل تقدير تعتلى منبراً وتصرخ فيه : ماذا تريد؟.. ماذا تريد؟

وتؤكد مفاهيم الخطابة بندائها : يا أيها الرجل.. ثم تسخفه منذ البدء وكأنها تريد أن تهزمه (بالقاضية) منذ بدء الجولة، فهو لن يستفيد ولن يفيد وراحت بعد ذلك تُفصِّل هذا الحكم العام وتنازله منازلة الأعداء الألداء ومدخلها إلى هذا أنه جاهل (بسيكولوجيتها) أو طبيعتها كما لو كانت عنصرا من عناصر العلم الذى لا بد من الإلمام به، أو أنها

"حشرة""فى معمل الفيزياء عليه أن يحسن تشريحها قبل أن يشخص مرضها.

هذه القصيدة رغم مباشرتها ولا نريد أن نقول سطحيتها مؤثرة جدا فى المتلقى– حسبما نظن – لأن وراءها إحساسا بالظلم تعانيه المرأة وإحساسا تاريخيا بالقهر من هذا الرجل زوجا كان أم غير زوج. هنا عنصر الصدق جعل القصيدة مخترقة للقلوب مباشرة حتى لمن يطلع عليها من الرجال.

ومع هذا النمط من الهجاء المغلف أو المستور خلف الوصف أو الغزل هنالك هجاء قد تدلى فيه المرأة بدلوها ولا تقف كليلة اللسان فى مرمى رصاص الرجل ولا تفتقد لبذاءة الشعراء فها هى ذى أم أسود الكلابية تهجو زوجها :

سأنذر بعدى كل بيضاء حرة

منعمة خود كريم نجارها

قصير قيال النعل يضحى وهمه

قريب ويمس حيث يعشيه نارها

إذا قال قد أشبعتنى بات راضيًا

له شملة بيضاء ضاق خمارها

يرى الطيب عـارا أن يمــس ثيــابه

أو المسك يومًا إن علاه صــوارها

ولكنــه من رطــب أخثــا حنــانه

إذا أمرعت بالكــف من ديــارها

وطير بذيـال يــرى الليــل متنــه

لناقته حتــى يحــين اذكــرارها

بعيد المدى يقضى الكرى فوق رحله

إذا القوم بالموماه حــار شــرارها

لعمر أبـى ما خار لـى أن يبيعنـــى

بأبعــره إذا قمحتــــه عشــارها

فوالله لـولا النــار أو أن يرى أبـــى

له قــودا أو ينالنــــى عــــارها

لقد نازعــت كفــى المهنــد ضــربة

وكان عليه خبلها وشنارها[١٠٢]

تحذير شديد اللهجة - بلغة السياسيين - لكل بنات جنسها من الزواج بهذا الرجل الذى لا ترى حلا له ولمثالبه ولحقارته شكلا ومضمونا

وسمتًا إلا أن تسحب سيفًا وتقضى عليه بضربة واحدة وليس يمنعها من هذه الفعلة إلا أن تترك عارًا أو ثأرًا لأبيها. والأمنية القديمة لأم الأسود حققتها الكثيرات من حفيداتها فى الزمن الراهن حينما شاعت حوادث قتل الأزواج على يد الزوجات بل وتقطيعهم وتعبئتهم فى أكياس. وعلى ما يبدو أن هؤلاء الحفيدات قد شُحِنَّ أزمانًا طويلة بكراهية الأزواج منذ قالت خولة بنت الأزور الكندية :

أعلاج سوء فُسَّق عُتَّات　　　ينلن سِنّا أعظم الشّتات(١٠٣)

فهى هنا توزع الاتهام على الأزواج دون تخصيص وعلى كل فرد منهم أن يثبت العكس وأن ينفى عن ذاته الفسق والخسة. ولندع هذه التعميمات لنعيش قصة طريفة من الهجاء الزوجى الرصين بين حميدة بنت النعمان بن بشير وزوجها روح بن زنباع وقد تصدت له المرأة وهى جديرة بالتصدى إذ أنها مزواج اقترنت أولا بالحارث بن خالد ابن العاص بن هشام ثم بروح ثم بالفيض بن محمد الحكم وفى زوجها الأول قالت:

نكحت المدينى إذا جاءنى　　　فيا لك من نكحة غاوية

كهول دمشق وشبانها　　　أحب إلينا من الحالية

صنان لهم كصنان التيوس　　　أعيا المسك والغالية(١٠٤)

فهى خبيرة نشوز وخروج على الأزواج وتحقير بشأنهم. فلنعد إذن إلى قصتها مع زوجها الثانى روح ابن زنباع قالت تهجوه:

بكى الخَزُّ من رَوْحٍ وأنكر جلــدَه ... وعَجَّتْ عجيجًا من جُذام المطارف

وقال العَباقد كنتُ حينا لباسَكم ... وأكســيةٌ كُرْدِيَّــةٌ وقــطائفُ.

فقال روح:

إن تَبْكِ ممن يُهينُهــــا ... وإن تَهْوَكم تهوَ اللِّئامُ المَقَارِفا.

وقال روح:

أثنى عليَّ بما علمتِ فإننــى ... مُثنٍ عليك لبئس حَشْوُ المنْطقِ.

فقالت:

أثْنى عليك بأنّ باعَكَ ضيِّقٌ ... وبأن أصلك فى جُذَامٍ مُلْصَقُ.

فقال روح:

أثْنى عليَّ بما عَلِمْتِ فإننــى ... مُثْنٍ عليك بمثل رِيح الجَوْرَب.

فقالت:

فثناؤنا شــرُّ الثَّنَاء عليكــمُ ... أسْوَا وأنْتَنُ من سُلاَح الثَّعلَبِ.

وقالت:

وهل أنا إلا مُهْــرَةٌ عربيــةٌ ... سَليــلةُ أفــراس تجلَّلَهــا بَغْلُ

فإن نُتِجتْ مُهْرًا كَريمًا فبالحَرى وإن يك إقرافٌ فما أنجب الفحل

فقال روح:

فما بالُ مُهرٍ رائعٍ عَرَضتْ له أتانٌ فبالت عند جَحفلَة البغلِ

إذا هو وَلى جانبا ربخَتْ له كما ربختْ قمراءُ فى دَمسٍ سهل

وقالت:

سُميت روحا وأنت الغمُّ قد عَلِموا لا روَّح الله عن رَوْح بن زِنباعِ.

فقال رَوْح:

لا رَوَّح الله عمن ليس يمنعنا مالٌ رغيبٌ وبعلٌ غير مِمْناعِ

كشافعٍ جَونةٍ تُجْلٍ مَخَاصرُها دَبَّابةٍ شَثْنةِ الكَفَّيْنِ جُيّاع.

وقالت:

تكحل عينك بَرْدَ العَشِيّ كأنك مُومِسَةٌ زانيـة

وآيةُ ذلك بعـد الخُفُوقِ تَغَلُّف رأسِك بالغالية

وأنّ بَنيكَ لَرَيْبِ الزمـا ن أمستْ رقبهُم حالية

فلو كان أوسٌ لهم حاضرًا لقال لهم إنّ ذا مالية

وأوس رجل من جُذام يقال : إنه استودع رَوْحا مالاً فلم يرده عليه.

فقال لها روح:

إن يكن الخُلْعُ من بالكم فليس الخلاعةُ من باليـة

وإن كان مَنْ قد مضى متكلم فأفٌ وتُفٌ على الماضيـة

ومـا إنْ برا الله فاستيقنـه من ذات بعلٍ ومن جـارية

شبيهًا بك اليومَ فيمن بَقـى ولا كان فى الأعْصُر الخالية

فبُعداً لمحياكِ إذا ما حَييـت وبُعداً لأعظُمكِ البالـية(١٠٥)

كأن روحًا فى أبياته الأخيرة أعلن الانسحاب أو التسليم ويريد أن يختم هذه الهجائية المتبادلة، فكيف يسمح لها - أى الهجائية - أن تستمر وتتوالد كل هذا التوالد بحيث لم تترك له الزوجة البذيئة شاردة ولا واردة إلا جرحتها وسفهتها وطمستها، إنه أكبر انتقام لجنس المرأة من جنس الرجال بعامة والأزواج على وجه الخصوص.. ويبدو لنا أن حميدة هذه هارية من جنس الشعراء، فنفسها نفس شاعر لا شاعرة ومنافحتها منافحة الرجال لا النساء ولم تصمد مع أى من الأزواج هؤلاء لأنها ناطحتهم قامة بقامة . إنها طبيعة رجالية تخلو من الأنوثة لكنها تعوضها بالعبقرية الشعرية.

ومع مثل هذه الأنماط من الرد الزوجي الذى بلغت فيه حميدة شأوًا عاليًا هناك نمط آخر من الردح بين شاعرة وشاعر لكنه ليس زوجًا من هذا القبيل مقولة ليلى الأخيلية للنابغة الجعدى:

أنابغ لم تنبغ ولم تك أولاً وكنت صبيا بين ضدين مجهلا

أنابغ لم تنبغ بلؤمك لا تجد للؤمك الأوسط جعدة مجهلا[١٠٦]

وكان الجعدى قد قال لها:

ألا حيا ليلى وقولا لها هلا قد ركبت أمرًا أغر محجلاً[١٠٧]

ولم تبلغ ليلى فى هجائها هذا ما بلغته حُميدة من بذاءة إنما تصدت للنابغة من غير أن تسف. ومع هذا النمط من الردح أيضًا هنالك ردح نسائى نسائى بين زوجتين كل منهما ترى فى الأخرى عيبًا ربما ما هو بعيب. إنه الصراع القديم الجديد بين القديمة والجديدة، ويذكر "يحيى بن عبد العزيز بن محمد بن الحكم عن الشافعى أن رجلاً من الأعراب تزوج امرأة جديدة على زوجته القديمة فكانت جارية الجديدة تمر على باب القديمة وتقول:

وما تستوى الرِّجْلاَن رِجْلٌ صحيحة

ورِجْلٌ رمى فيها الزمانُ فشُلَّت

وقالت بعد أيام:

وما يستوى الثوبان ثوب به البِلَى وثوب بأيدى البائعين جديد.

فخرجت إليها جارية القديمة وقالت:

نَقِّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما القلب إلاَّ للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتـــى وحنينـه أبداً لأول منزل(١٠٨)

فكل امرأة تعرض بضاعتها، الأولى حداثة عهدها بالزواج بحيث أصبحت سند الزوج الذى تتحرك به كما لو كانت رجله الصحيحة بينما شلت الرجل الأخرى أو الزوج القديمة، ومع إصرار الزوجة الجديدة على مهاجاة القديمة انحط أداؤها الشعرى فى البيت الثانى فشبهت نفسها وضرتها بالثوبين وما أبعد احتياج الإنسان للثوب عن احتياجه لرجله أو لأى جزء من جسده، وحولت نفسها فى الشطر الثانى إلى سلعة تباع وتشترى حتى لو كانت جديدة، أما الزوجة القديمة فقد احتشدت لها لتطلق حكمة أو تفجر موقفاً شعرياً خلد على الألسنة فى بيتيها السابقين بصرف النظر عن مدى صحة ما قالت من أن القلب للحبيب الأول، ثم إن الحنين يختلف عن الحب، فقد يحن المرءُ لحبيبه الأول أو يهفو إليه لكنه لم يعد يعشقه، ولذا جاء تعبيرها فى البيت الثانى أدق وأدخل فى طبيعة النفس البشرية علاقتها بما حولها على غير البيت الأول، أى أن المرء يحن فعلا لأول منزل على الرغم من أنه قد لا يقيم فيه وقد لا يحبه

وتستمر المهاجاة النسائية النسائية لنشهد حالة غريبة بين الشاعرتين فضل وخنساء جارية هشام المكفوف، والغرابة هنا أن كلاً من الشاعرتين لها " سنيد" فكان يعاون فضلاً أبو شبل عُصم بن وهب وكان يعاون خنساء القصيدى الصلحى كما يذكر أبو الفرج فى الأغانى "وقد أورد أبو الفرج أبياتًا كتبها أبو شبل على لسان فضل يهجو خنساء، فهل هى فعلاً لأبى شبل هذا أم هى لفضل أم أنها إنتاج مشترك، أم أن فضلا كتبتها ونقحها لها أبو شبل؟ هذه حالة تستدعى دراسة عميقة والتوقف عند سمات الأبيات بالنظر إلى ما أنتجته فضل بصفة عامة.

تقول هذه الأبيات:

خنساءُ طيرى بجناحين ... أصبحتِ معشوقة نذْلَين

مَنْ كانَ يَهْوىَ عاشقًا واحدًا ... فأنْتِ تَهوين عشيقين

هذا القصيدىُّ وهذا الفتى ... الصّلحى قد زارك فردين

نَعِمْتِ مِنْ هذا وهذا كما ... يَنْعَم خنزيرٌ بحشَّيْن.

فقالت خنساء تجيبها:

ما ذا مقالٌ لك يا فضلُ بلْ ... مقالُ خِنزيرين فردين

يُكَنَّى أبا الشبل ولو عاينتْ ... عيناه شبلاً راث كُرَّين.

وقالت فضل فى خنساء:

إنَّ خنساءَ لا جُعلت فداها   اشتراها السارُ من مولاها

ولها نكهة يقول مُحَاذِيها   أهذا حَدِيثُها أم فُساها(١٠٩)

وعلى كل سواء أكانت هذه الأبيات إنتاجا رجاليا أم نسائيا أم مشتركا فهى لا تخرج عن كونها شتما صريحا وبذاءة من القول لا تضيف قيمة لقائلها. إنها تذكرنا بمشاجرات النسوة فى الأحياء الشعبية بالقاهرة وعلى غير هذا الفساد الفنى نرى مثلاً بيتين لجندل بن الراعى وزوجته من بنى عقيل "وكان بخيلاً فنظر إليها يومًا وقد هزلت وتخدَّد لحمها، فأنشأ يقول:

عُقَيليَّةٌ أما أعالى عِظامِها   فَعُوجٌ وأما لحمها فقليلُ.

فقالت مجيبة له عن ذلك:

عُقيليَّةٌ حسناءُ أزرى بلحمها   طعامٌ لديكَ ابن الرّعاءِ قليلُ.

فجعل جندل يسبها ويضربها وهى تقول : قلت فأجبتُ، وكذبتَ فصدقتُ، فما غضبك؟!(١١٠)

فلا إسفاف هنا وإن بدا الهجاء ماديًا. وليس يفوتنا أن نتوقف عند نمط من الهجاء اكتمل كفن فى تجربة إنسانية لم تكتمل، فها هو ذا دريد بن الصمة يهجو الخنساء وتهجوه بمجرد أن خطبها وما كان قد

تزوجها، لقد تقدم لخطبتها "ورفضته قائلة ما كنت لأدع بنى عمى وهم مثل عوالى الرماح وأتزوج شيخًا وهجاها بقوله:

وقاك الله يا ابنة آل عمـــرو ... من الفتيان أشباهي ونفسي

وقالت إننى شيــخ كبيــر ... وما نبأتها أنى ابن أمســـى

فلا تلدى ولا ينكحك مثلي ... إذا ماليلة طرحت بنحـــس

تريد شُرُنبُثَ القدمين شثنًا ... يباشر بالعشية كل كـــرس.

فأجابته بقولها:

معاذ الله ينكحنى حبركى ... قصير الشير من جشم بن بكر

يرى شرفًا ومكرمة أتاهـــا ... إذا أصبحت فى دنس وفقـــر

قبيلته إذا سمعوا بذعـــــر ... تخفى جمعهم فى كل جحر"(١١١)

فما بالنا لو أن الزواج قد تم والتجربة قد بلغت منتهاها، ربما لخرجنا بأهاجى لا تقل عن أهاجى الفرزدق وجرير فكل من الشاعرين: الخنساء ودريد فحل فى مجاله وبين أقرانه.

هل يظن ظان أن جداتنا وحدهن سليطات اللسان؟ لا فالسلاطة قسمة غير ضيزى بين النساء جميعا، ففى العصر الحديث وفى أيامنا هذه طالت ألسنة المرأة أيضًا تشريحًا وتجريحًا فى الزوج وفى الرجل

بصفة عامة، وقد "شنت شاعرات مصر حربا على الطلاق الذى لا تُلجئ إليه الضرورات وحملن على العابثين بالعلاقة الزوجية الذين يطلقون شرهًا إلى التغيير. فالشاعرة فلورى عبد الملك تقول إنها كانت تعيش فى وهم كبير، فإذا بكل ما تراه أو تسمعه رياء فى رياء، فمن كانت تظنه شهمًا وفيًا، فمنحته قلبها وعطفها وحنانها إذا به مخادعٌ غادرٌ، تقول فى قصيدتها" رياء"

رياءٌ كلُّ ما يبدو لعينى

رياءٌ كلُّ شىءٍ مسَّ أذنى

رياءٌ كلُّ شىء عاشَ حولى

بوهم - خلتُهُ بيتى وحصنى

وكنتُ أُفَتِّشُ الأركانَ عنِّى

أُلاقى فى الزوايا حُلْمَ أَمنْى"(١١٢)

هنا فى هذه المقطوعة نقلة أو ارتقاء بفن الهجاء، فليس الزوج عنِّينًا ولا قصيرًا ولا قميئًا ولا بخيلاً إلى آخر هذه الصفات التى اعتدناها فى هجو جداتنا لأجدادنا. قدمت الشاعرة هنا صورة كلية أقرب إلى التجريد تنضوى جميعًا تحت مسمى الرياء.. فما فصلته رياءٌ وما سكتت عنه أيضًا رياءٌ، قياسا على المنطوق به.

وإذا كان هناك ميل إلى التعميم والتجريد كشىء من بنية العقل الحديث فإن الشاعرة لا تميل إلى تركيب الصورة الشعرية والتحليق بعيداً فى آفاق الخيال.

والحكم نفسه يمكن إطلاقه على إيمان بكرى فى قصيدتها "سوف أبقى دائما" التى تقول فيها:

بك أو بدونك سوف أبقى دائماً

نبعًا يفيض بلا انقطاع

شمساً يدثرها العطاء

أنثى ومثلى لا تباع

قلبى سيغدو بلبلاً بكراً نقياً

ولسوف أبقى فى الحياة وللحياة

لأرتقى فى الأسر قيداً وابتياع

وسأرتوى من نبع أيامى الوضيَّة

وأريق كأساً للتخلف والضياع

فإلى متى ستظل تلعق فى غباء

أصداء ماضٍ لن يعود إلى الوراء

أيام كنت متوجًا

تحيا نديم الكأس أو خَلِبَ النساء

فى قصرك العاجىّ تحلم بالجوارى والإماء

فإذا أمرت برقصة

فالكل يرقص بانصياع

وإذا غضبت فقل على الدنيا الفناء

وتسير خلفك نسوة

كقطيع أغنام تباع

أرواحهن

أجسادهن

أرض مشاع

قد خِلْتَ أنك ربهم

تحيي وتفني من تشاء

أركان عرشك قوضت

وتناثرت عبر الهواء

فلترحل واترك جوادك فى العراء

ما عدت أنت ولا أنا

يوما سأحيا في الخفاء(١١٣)

فهى مواجهة مباشرة لهذا الرجل بعنفه وشراهته وادعائه وتصديقه للأكاذيب التى صاغتها يداه، وقد بدا التماسًا قويا وإن شئت فقل التأثر بين هذه القصيدة وقصيدة جليلة رضا "من المرأة إلى الرجل" التى تبدؤها بقولها:

ماذا تريد؟ ماذا تريد؟ يا أيها الرجل العنيد(١١٤)

ونظن الشاعرتين هنا فلورا وإيمان قد انشغلتا بالفكرة أو القضية النسائية وما يشاع فى عصرنا من مقولات حقوق المرأة والقهر الذكورى عن تأكيد القيم الجمالية فى فن الشعر، فسيد الموقف هنا هو المضمون لا الشكل وإن كان الشعر حسبما يتصور شكلاً قبل أن يكون مضمونًا.

أخيرًا لو تصورنا أننا نطلق الشاعرة الهجاءة والشاعر الهجاء فى مضمار سباق فأى الفرسين أو أى المهرين يفوز بالسباق؟! لا نريد الدخول فى حيثيات متفرعة من الموازنات الأدبية، لكن نظرة أخرى لما أوردنا من هجائيات كل من الطرفين تشير إلى احتلال المرأة غالبًا لمؤخرة السباق، ولا نظننا ندينها لهذا التأخر بل هو شيء من الفضل ينبغى أن يحسب لها؛ فالمرأة سكن للزوج وللأسرة كلها، والمرأة احتواء،

والمرأة احتضان، والهجاء هنا على لسانها موجه لمن كان جديراً بالسجود له إذا سُجد لغير الله، فهؤلاء الهجاءات لا تعبرن عن المرأة العربية فى حالاتها الطبيعية، بل تعبير عن بثور فى العلاقات الزوجية بين الرجل والمراة.

حتى إذا خرجنا من أطر القيم الاجتماعية ومفاهيم العرف والدين للبحث فى تدنى مستوى الهجاء النسائى عن مستوى هجاء الرجل، فإننا لا بد أن نشير إلى قلة ثقافة المرأة فمن أين لها هذه الثقافة وهى قعيدة بيتها، لا مؤثر فيها ولا انفتاح لها على العالم إلا قليلا أو من خلال رجل؟ وضمن هذه السطحية أو الضحالة الثقافية فقر المعجم اللغوى، وهنالك كذلك لانقطاعها عن همزة الوصل مع المتلقى عبر الراوى الذى كان يحمل حروف الشعر من على لسان المبدع وهى ساخنة لينقلها إلى عامة الناس فى التجمعات و الأسواق، وأحيانا كان الشاعر نفسه متردداً على هذه الأسواق فأين المرأة من هذا وذاك؟!

ربما يتساءل متسائل عن حال المرأة فى العصر الحديث وقد انطلقت كل منطلق وجابت الآفاق.. فنقول إن مخلفات ألف عام لا تمحوها نهضة عدة قرون.

هجاء حلمنتيشى

من أقـرب طريق يطرق الشـعـر الحلمنتـيـشى أبواب العـداء بين الشـاعـر وزوجـتـه، فـالحلمنتـيـشى - الشـعـر السـاخـر الذى يـجـمـع بين الفصحى والعامية - لا ينشغل بالأعماق الفلسفية والنفسية أو التصوير الشعرى المركب بعيد المدى، بل هو يغرق مباشرة فى مظاهر الأزمة بين الطرفين ويغرق معه المتلقى فى هذه الأزمة وفى فيض من السخرية، ربما كانت هناك قصائد ساخرة تقف على هامش الحلمنتيشى، إنها لا تنتمى للمتن تمامًا كقصيدتى عزت الطيرى المعنونتين بـ "قصيدتان إلى زوجتى" وقد أعترف فى القصيدة الأولى ضمنا أنه يخون زوجته نظريا بقصائد فى ذات العيون الزرق والشعر الأصفر، ويحاول إيهام الزوجة بأنها صاحبة القصيدة بينما تبدو الزوجة إما أنها مغفلة أو أنها تعى كذبة الزوج، لكنها "صابرة على البلاء"، والقصيدة الثانية الصغيرة تأكيد أو تكرار لهذا المعنى بعد أن تدخل الابنة عبير" طرفًا ثالثًا" لتعرف أن صاحبة القصيدة لم تكن أمها.. يقول عزت الطيرى فى قصيدتيه القصيرتين:

قالت زوجى

مسكين زوجى

يسهرُ طول الليلِ

يسابق خيل الشعرِ

ويعود

فيوقظنى

يُسمعنى أحلى أغنية

فى لون عيونى الزرقاء

وضفيرة شعرى الشقراء

مسكين زوجى

لا يدرى

أن عيونى سوداء

وضفيرة شعرى سوداء

لا يدرى ! !

مسكين زوجى !

***

عبير الصغيرةُ طفلة عمرى

وقد أكَمَلتْ منذ يوم سَنة

ترانى أقلّب فى دفترى

ورأسى بأفكاره المثخنة

تمزق كل قصائدِ شعرى

وتغرسُ أظفارها اللينة

كأن عبير الصغيرة تعرف

أنى أداعب عين المها

وأن هناك حبيبا غريبا

وأن المها لم تكن أمها(١١٥)

نرى أن هذا النمط الساخر من الكتابة إذن هامش على شعر الحلمنتيشى، أما هذا الفن نفسه فى زماننا الراهن فقد قاده بغير منازع الراحل شوقى أبو ناجى وفى هذا الغرض تحديداً : هجو الزوجة كتب قصيدة غير معنونة تُعد من وجهة نظرنا أمًا للقصائد فى هذا المجال قال أبو ناجى:

من ذا يُصنفر مُخَّ أم عيالى ... ويردُّها للسكةِ الطّوالى

ويُظَبِّطُ الأَكْسَ الذى فى رأسها ... ويشيلُ لى صدأً على الأقفالِ

نكَديّةٌ تلوى المعانى كلما ... همَّتْ بتأويلٍ يشندل بالى

وتبيت تردحُ فى إذاعتها ولا ... ترتاحُ ثانيةً من الإرسالِ

من كل لفظ جارحٍ وبذاءةٍ ... معجونةٍ بالزفتِ والأوحالِ

ولَكمْ أُطَنِّشُ والمدام تزقنى ... فى ورطةٍ أو موقفٍ بَطّالِ

وإذا اشترى جيراننا شيئا لوتْ ... بوزًا يصيح مُجَعّراً: عقبالى

واعجبْ إذا ابنتنا تحوز تقدمًا ... فتقول : بنتى والنبى طالعالى

أما إذا ما الواد خَسْتَعَ وَلْوَلتْ ... وتقول : مثلُ أبيه فى الإهمالِ

وتبيتُ تندب حظها بزواجها ... مِنْ خيخةٍ وتقول: مش خيّالى

وقعَتْ وما سمَّتْ عليها أمها ... لشماتةِ الأعداءِ والعذالِ

وهى التى قد حطّمتْ مرآتَها ... كى لا تبصّ لسحنة الدجالِ

لو أنها طَلَعتْ لقرد فى الدجى ... قطع الحبال وصاح فى ولوالِ

فالوجه مزبلة القباحة ملتوٍ ... إذ يستحق الضربَ بالأنعالِ

وَلَكَمْ تُسخْمطه فيبدو مقرفًا ... ليخاف منه براءة الأطفالِ

قد عايرتْ دبّانةٌ أختا لها ... حَطّتْ عليه ولم تطرْ طوالى

وتعيب جارتها الجميلة عبلةً … وتذمّ حسْنَ تحيةٍ ونوالِ

عتبوا عليَّ وقد رضخت لدمعها … لأجيب دِشًّا مثل عبد العال

فسحبت سلفاءً وأخرى لم تزل … أحني لها ظهري وساءتْ حالي

لألبي الطلبات لا أعصي لها … أمراً وإلا شفت ما يجرالي

وكم استدنت وكدت أرهن جزمتي … وأسير حفيانًا بغير نعالِ

وإذا التبشرق نط فوق حدوده … كانت نتيجته من الأهوالِ

أنا لست أدري كيف يغدو كفّها … بالمال مثلَ الماء في الغربالِ

ومدرسُ الأولاد ليس يرقّ لي … ويغيظُني تهديدُه أطفالي

ولنا بناتٌ قد خطبن وما لنا … شيءٌ يساوي خردلاً من مالِ

أما المرتب يا أخي فمحملٌ … بالدَّيْنِ والأقساط للأنذال

فشفيق هزقني؛ وأم عزيزة … سكتتْ ولكنْ تنّها بصّالي

ويشد كمي بائع متجول … أو من يزركش ذات كعبٍ عالِ

ميراث أمي بعتُه.. فتبشرقَتْ … سَنَةً وعدت أعوزُ نصفَ ريالِ

ومددتُ كفّي للصديق فردّني … إذ لامني عمي وفَلْسَعَ خالي

وطلبت منها الرفق بي لتعينني … وأنا أداري رقعةَ البنطالِ

فَتَنَغْوجَتْ لتقول لي بمياصةٍ … زوجي.. أريد الهاتف النقّال(١١٦)

وتعود مرجعية هذه القصيدة إلى حصرها تقريبا لأكثر عيوب الزوجات، فهى نكدية حين يقول :

نكدية تلوى المعانى كلما همت بتأويل يشندل بالى

ثم إنها بذيئة سليطة اللسان جارحة العبارة فى البيتين التاليين لهذا البيت، كما أنها جشعة طماعة حسود لجيرانها مورطة لزوجها فيما لا يحتمل لنفقات الحياة فى أبيات أخرى من القصيدة، ومبذرة خاربة للبيت حتى إنه باع كل ما يملك إنفاقًا عليها فى ختام القصيدة، وهذه كلها صفات معنوية للزوجة، لكن أبا ناجى أراد أن يكون جامعا مانعا فى قصيدته، ففضح قبح المهجوة:

فالوجه مزبلة القباحة ملتوٍ إذ يستحق الضرب بالأنعال

ويصل القبح أقصاه بما لا قبح بعده بل ينتقل إلى حالة من التقزز والتنفير البشع حين يقول :

قد عايرت دبانة أختا لها حطت عليه ولم تطر طوالى

الوجه هنا أشد دمامة وقرفا من مقالب القمامة، وعلى الرغم من هذا القبح" الفائق" فالمرأة لا يعجبها العجب إنها تذم الحسناوات وكأن ذمها يغير من خلقة الرحمن المبدعة لصالح هذه الخلقة المقززة.

ذكرنا إذن أن قصيدة شوقى أبو ناجى هذه هى القصيدة الأم وإن كنا لا نعرف تاريخ كتابتها بالنظر إلى القصائد الأخرى التى نستشهد

بها الآن ومنها مثلا العمل العامى لفريد طه الذى يحمل عنوان "حسى بمشاعرى يا هانم" وهو ينزع منزعًا فضح دمامة الزوجة فى بيتها، وهى دمامة ليست كدمامة موصوفة شوقى بل هى دمامة الإهمال فى الذات وعدم النظافة أى أنها قابلة للعلاج. والشاعر فى هجوه لها رفيق بها يحثها على التزين ويحرضها عليه بإثارة الغيرة من جارتها الأنيقة، المرأة الأخرى يحرضها بحبه لها وإشفاقه عليها إنه هجاء " طرى" يليق بشاعر مهذب كفريد طه(١١٧)

والتبديد والاستهانة والإهمال التى أشار إليها شوقى أبو ناجى توقف عندها ياسر قطامش وفصلها فى "غسيل الأموال" حين قال:

يا ويلــى مــن أم عيالـــى	بمصائبهـا شـغلت بالى !!
طلبــت منــى أن أعطيهــا	أثوابى كى تغسلهــا لى
غسلتها لـم تفـرغ جيبـى	من أوراق المـال الغـالى
فتكرمش كالكرشـة مالـى	وغـدا "كهـدوم" الزبـال
عشرات جنيهات غسلـت	وانكمشت كالورق البالى
قالت :"بالمكوى" سأكويها	حتى أصلحها فى الحـال
فخطفت المكـواة سـريعًا	كى أكوى خيبة آمالـى
أمسكـت بهـا لأهددهـا	بحذاءٍ ذى كعبٍ عـال

وهممت بها كي أضربهـــا   وجننت جنـــون الأفيـــال
فجـرت للمطبـــخ هاربـــة   قالـــت وبكـل استـــهبال
كم تزعـم أنـك يا زوجـــي   رجل "كرجال الأعمـــــال"
والأولى أن ترقـص مثلـــي   فرحا "بغسيـل الأمـوال"(١١٨)

لكن من عناصر السخرية هنا أن المفارقة قائمة على غسيل الأموال بمعناه الاقتصادى الشائع وغسيل الأموال الذى قدمه هو بالمعنى المادى المباشر، الشاعر هنا يتماس مع المجتمع وفضائحه الاقتصادية الشائعة وهو ما يعطى مثل هذا العمل بعداً يتجاوز حدود السخرية البريئة.

وإذا كنا لم نعرف إشارة محددة لتاريخ قصيدة شوقى فإن قصيدة الخلع لياسر قطامش تتعرض لقضية جديدة، ربما كتبت قصيدة شوقى قبل أن يبرز الخلع الذى أقر كقانون منذ سنوات قليلة لم يكن له ذكر لدى أبو ناجى، لكن الاتفاق هنا هو نكد الزوجة فى مضمون الخلاف بين الطرفين هو بذاءة الزوجة ورداءة طباعها يقول ياسر فى" الخلع"

جلست والشـــر بعينيها   تتأمل فى وجهى المقلـــوب
قالت يا زوجى قم واخلع   فالخلع عليك هو المكتـــوب
مخلوع أنت بلا شـــك   فأجبت : وذاك هو المطلـــوب
قد ذقت بقربك بهـــدلة   وكلامك يخبطنى كالطوب

بعصير المر لكم أُسقى بالكوب المغلى تلو الكوب

وتحملت شتما ضربا بصحون المطبخ والمركوب

فأنا المجروح، أنا المبطوح أنا المتخرشم والمضروب

فالشقة من حقك حتما النفقة من جيبى المثقوب

وأرى تطليقك يؤذينى وسأطرد بالشبشب والروب

وأبوس يديك أريحينى فالخلع هو الحل المرغوب

ولعل الله يعوضنى ببديل عن بيتى المخروب

قالت : لن أخلع هذا والآن قد اكتشف الملعوب

فبكيت وقلت أيا ربى حتى فى الخلع أنا المغلوب(١١٩)

وهنالك إعادة طرح لمنتج قديم لا يخلو من طرافة وظرف تلقائى فى معارضة ياسر قطامش لابن زيدون فى قصيدته :

أضحى التنائى بديلا عن تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

فقال ياسر:

أضحى " الزعيقُ" بديلا عن أغانينا

وناب عن فرحة اللقيا تباكينا

فكيف يا زوجتى تبغين عكننتـــى؟

وكنــت يا حلــوتى بالشِّعْرِ تَرضينا

وقلتِ فى غلظةٍ: أين (المرتبُ) ؟ إن

لم تُعطنى نصفَه أضربكَ ســكينا ! !

أين (الحوافزُ) ياكذابُ قد ذهبتْ؟

أين (العلاوة) ؟ قلت: الحبُ يكفينا

فقلتِ : يا دهوتى السوداء يا رجلى

هل يُطعم الحبُّ أطفالى ويسـقينا ؟ !

هل يدفعُ الحـبُّ إيجـارًا لشقتنـــا ؟

أو يشترى" عنبا" أو يشترى "تينا" ؟ !

ومن سـيدفعُ"للبقـــال" أجــرتهُ؟

أراه لـــم يعطنـــا "زيتـــا" و"تموينـــا"

إياك أن تكتــب الأشــعارَ ثانيــــةً

أصبحــت من أجلــها للغيــر مديونا

إن كنتَ لم تستــطعْ شيئا لتصنعــه

فاسرح بقردٍ إذن وادعوه "ميمــونا" !

وقل بلا خجل للناس إن سألوا

قد أصبحَ الشعرُ فوقَ الرفِّ مركونا[١٢٠]

فـهو إعـادة طرح للعـلاقـة المادية المتـوترة بين الزوجة والزوج، وقـد تعرض شوقـى أبو نـاجى لمثل هذه القضـية فى أكثر من قصـيـدة ومنها القصـيدة مـحـور الحديث. ولا يـهجو الشـاعر زوجتـه بأوصـاف مـحددة كالطمع والغبـاء والبلاهة والجشـع، بل يترك هذه الصفات من وراء ستار ليصفها بها المتلقى نفسه، ثم يستطرد قطامش فى تشويه الزوجة عقلاً وإدراكًا عبر قصيدته" الكاميرا الخفية" حين يقول:

وقالت زوجتى بعد التحية

إلى أين الذهاب؟ أجب علية

فقلت لها سأذهب "يا حلوللى"

لمكتبة بشط اسكندرية

وعندى ندوة للشعر أيضا

سأعقدها "بنادى الصهبجية"

وعنك وعن رموشك سوف ألقى

قصيداً للعيون الفاطمية

فمن حلوى جمالك صار شعرى

لذيذ الطعم مثل"مهلبية"

فزامت بعدما شكّت بقولى

وبصّت لى بأعينها "شوية"

وذاقت رشفة من "نس كافية

وشدتنى بكم "الجلاّبية"

تحذرنى وتنفخ ثم صاحت

كصيحات الزنوج البربرية

بذيلك سوف تلعب من جديدٍ

وتعمل من خيالك تمثيلية.

وإنى لست ساذجةً عزيزى

لتلبسنى بمكرك"سلطانية"

حلفت لها برأس أبى وجدى

وعشرتنا وأيامى الخلية

وما قد كان من عيشٍ وملحٍ

ومحشى حبنا والشركسية

بأنى صادقٌ، زوجٌ وفٌى

نبيلٌ ليس عندى سوء نية

وقلت لها لأرضيها سآتى

بفستانٍ من " العجمى" هدية

وفى "المرسى أبو العباس"إنى

سأدعو الله أن يبقيكِ لية

فقالت لى: موافقةٌ ولكنْ

حذارِ من الملاعيب الشقية

فكم زوجٍ يخون الست ظنًا

بأن الست عظمُتها طرية

إذا ما كنت كذابًا تذكر

بأنى لست يا هذا" هفية"

وعندى خبرةٌ فى ضرب نارٍ

وأيضًا فى سلاح" المدفعية"

فجهز إن أردت اليوم غشّى

جنازتك المهيبة و الوصية

ورن الهاتف المحمول رنًّا

كإنذار الحروب العالمية

لحمقاء تعاكسنى وقالت :

لماذا لا أراك .. أنا سنية ؟ !

تعال الآن يا كتكوت قلبى

لنسهر فى " تياترو الأزبكية"

فهبت زوجتى كالرعد هبًّا

تصوب نحو رأسى بندقية

أجبنى واعترف حالاً وقل لى

قبيل الموت من هذى" الولية"

فقلت لها : برىءٌ يا حياتى

ولا أهوى سنية أو بهية

فهذى نمرة غلط أكيد

ويبدو أنها " الكاميرا الخفية"

وقال ابنى لها : رفقًا ببابا

فتلك زميلتى سوسو الغبية

أرادت أن تعاكسنى وعندى

شهودٌ لى أدلتهم قوية

وهأنذا نجوت بلطف ربى

" وكم لله ألطافٌ خفيةٌ"(١٢١)

إنها الديكتاتورية الزوجية من المرأة لا من الرجل وهو البرىء، الوديع، الطيب، الذى لا يأتيه الخبث من بين يديه ولا من خلفه.. أما هى فحمقاء سريعة الاتهام للزوج أو للحمل الوديع الذى وقع فريسةً لها.

***

قد تسألنى أين هجاء الزوجات للأزواج هنا، نريد أن نشير إلى ضعف رد الفعل الأنثوى، لا لبراءة الرجل الزوج ونقاء سريرته ونظافة ذيله - لمن لهم ذيول وهم كثر - بل لأن المرأة أميل إلى رقة الطباع والخجل فى مواجهة المجتمع الحديث وهذا أدعى لأن تبتعد عن أشكال الهجاء الساخر سواء للزوج أو غيره. لقد قيل قديمًا على لسان مفتى البصرة وأحد رجال الحديث فيها، حماد بن سلمة (توفى ١٦٧هـ) قال:

"لايحب المُلَح إلا ذكران الرجال، ولا يكرهها إلا مؤنثوهم"(١٢٢)

كما أن المعجم اللغوى للمرأة ينشأ من أنماط تربوية محافظة فى الغالب، حتى لو كانت الأم والأب غير محافظين فهناك دافعٌ ما يقودهما إلى تنميط الطفلة تحديداً لا الطفل فى أطرٍ اجتماعية تقليدية ثابتة. فكيف تهجو المرأة وتنبغ في الهجاء ومعجمها اللغوى على ما نظن ليس على ثراء معجم الرجل ولا ذنب لها فى هذا.

ربما قيل إن بعض أنواع الشتم " مثل الردح" خاصية نسائية بحتة، وكم من ردح الحوارى سُجل فى أعمال درامية فنرى.. أن للحوارى معجمها وحياتها وأن لهذه الطبقة الدنيا من المجتمع عالم غير العالم المعتدل أو الطبيعى أو ما يمكن أن يُسمى بالطبقة الوسطى التى يُبنى عليها قوام الحياة، فقد تردح المرأة السوقية ردحا وراثيا فى الغالب لكنها لا تستطيع أن تنشئ قصيدة أو نظما فنيا ولو حتى من اللهجة العامية.

وغير ما أشرنا إليه مبثوثا فى ثنايا فصول هذا الكتاب من عجز المرأة عن مجاراة الرجل فى الهجاء، هناك مبرر آخر لهذا العجز وهو غلبة الانفعال على العقل لدى أكثرية النساء إن لم يكن لديهن جميعًا وتستطيع المرأة أن تنتقم لنفسها بالصراخ والشتم المباشر وربما بالنميمة فلا يتدخل العقل لوضع هذه العاطفة فى منظومة فنية تفضح مثالب الرجل كما يفضحها.

إذا شئنا إجمالاً أن نطرح تساؤلاً فحواه : بعد كل هذا الهجاء من الأزواج لزوجاتهم هل يبقى فى المرأة شئ يُمدح؟! ولنجيب بأن السائل عليه أن يتجه إلى فنون الغزل فى تراثنا العربى ليجد مقابل كل قصيدة هجاء ألف قصيدة غزل وتشبيب، ولوعة وأسى واستغراق فى عيون المرأة وثغرها وروحها وكل ما تكن وتعلن، حتى المرأة الزوجة نفسها التى هُجيت من زوجها لا تعدم أبداً أن تكون ممدوحة معبودة من شعراء آخرين. إنها المرأة ولا شئ غير المرأة.. والتى أسمعها بين السطور تقول:

سأهجوك إن شئتَ شعراً

.... وإن شئتَ نثراً

.... وإن شئتَ صمتاً

سأهجو عينيك : كذّابتان

تقولان ألاّ وجودَ تراهُ إلاّ بجفنى

سأهجو الشفاه

ولمساتِ ثغركَ فوقَ الجبينِ

لكنَّ احتجاجًا من القلب - قلبى- يطلُ إلىَّ

ينقرُ بالونه من غضبٍ تطايرَ منىّ

سلامًا وبردًا ووجدًا عليكَ

وصلصالَة حانية بين يديكَ

وتُعلنُ كلّ حنايا الجسَدِ

فوقَ المفارق.. فوق الطّرق

أنا العشقُ أنبتهُ فى رجلٍ

ورجُلى قد تيمتهُ ثغورى

فهام.. وهام

ولا لن يُفيقَ

غريقًا هنالك حتّى الأبد(١٢٣)

الهوامش

مفتتح

(١) د. ليلى محمد ناظم الجبالى: معجم ديوان أشعار النساء في صدر الإسلام .. الناشر/مكتبة لبنان - ط أولى ١٩٩٩، ص ١٤ .

(٢) محمد بن أحمد بن الأزهرى الهروى (أبو منصور) ٨٩٥ - ٩٨١ميلادى ٢٨٢ - ٣٧٠ هجرى : معجم تهذيب اللغة - موسوعة الشعر العربى - طبعة ٢٠٠٣ - إصدار المجمع الثقافى - الإمارات العربية www.culture.acpoetry@ns.org .

(٣) محمد بن أحمد بن الأزهرى : معجم تهذيب اللغة - موسوعة الشعر العربى - ط ٢٠٠٣ .

(٤) محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين بن منظور المصرى ٦٣٠ - ٧١١ هجرى، ١٢٣٢ - ١٣١١ ميلادى: لسان العرب من موسوعة الشعر العربى ط ٢٠٠٣ .

(٥) ابن منظور المصرى: لسان العرب من موسوعة الشعر العربى.

(٦) القرآن الكريم.. سورة البقرة آية رقم (١٨٧).

(٧) حديث شريف صحيح السند روى عن أم سلمة.. وعائشة رضى الله عنهما وكذا روى عن عبد الله بن عمر وعبيد الله رضى الله عنهما.

(٨) حاذر من المرأة: الأدب الكبير والأدب الصغير - لابن المقفع - ص ١١٧ - ١١٨ .

الهجاء.. أهو طبيعة عربية ؟!

(٩) أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى: العقد الفريد ط٤ ٢٠٠ الهيئة العامة لقصور الثقافة جـ٣ .. قدم الطبعة د. عبد الحكيم راضى ص ٤٥١ من كتاب "كلام العرب .. قولهم فى الذم".

(١٠) نفس المرجع السابق.. نفس الصفحة.

(١١) د. محمد بدر معبدى: أشعار النساء فى الجاهلية والإسلام ط ١٩٨٦ الباب الأول، الفصل الرابع ص ٨٢ .

(١٢) ابن عبد ربه الأندلسي : العقد الفريد، جـ٥، ص ٢٩٥، ٢٩٦

(١٣) أبو الفرج الأصفهاني: كتاب الأغانى/ إعداد لجنة النشر لكتاب الأغانى بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم/ جـ١/ الناشر مركز تحقيق التراث هيئة الكتاب ط١٩٩٢ ـ ص ١٦ .

(١٤) أبو الفرج الأصفهاني: الأغانى / جـ١ – ص ٣٦ .

(١٥) نفس المرجع السابق نفس الصفحة.

(١٦) انظر طلب دعبل بن على لحاجة من بعض الملوك ومنعه له ومقولة دعبل فيه.. كذلك مقولة أبى زيد فى ملك آخر "بالعقد الفريد" لابن عبد ربه جـ٥، ص ٢٩٧ – ٢٩٨ .

(١٧) د. محمد بدر معبدى: أشعار النساء فى الجاهلية والإسلام ط ١٩٨٦ .. ص ١٣٨ .

(١٨) جمال فرحات: ذم النساء .. من التراث العربى، الدار العالمية – بيروت ط ١٩٩٣، ص ١٤٥ .

(١٩) نفس المصدر السابق ص ١٤٦ .

(٢٠) نفس المصدر نفس الصفحة.

(٢١) د. محمد بدر معبدى : أشعار النساء فى الجاهلية والإسلام، ط ١٩٨٦ – الباب الثالث .. الفصل الثانى ص ١٤٥ .

(٢٢) نفس المصدر.. نفس الصفحة.

(٢٣) نفس المصدر السابق ص ١٤٥ .

(٢٤) د. محمد بدر معبدى: أشعار النساء ط ١٩٨٦، ص ٨٢ .

(٢٥) نفس المصدر السابق ص ٨٢ .

(٢٦) نفس المصدر السابق ص ٨٣ نقلاً عن كتاب "الهجاء" الصادر عن دار المعارف للدكتور محمد سامى الدهان ص ١١ .

(٢٧) نفس المصدر السابق، أشعار النساء فى الجاهلية والإسلام ص ٨٣ .

(٢٨) انظر موسوعة الشعر العربى، طبعة ٢٠٠٣، المجمع الثقافى بالإمارات العربية (تذكر موسوعة الشعر العربى أن هناك أربعة وستين شاعراً من فحول الشعراء قاموا بالهجاء .. منهم على الجارم يقول :

لو استطعت لابتدعت كُفوفا   من هجاء تصك وجهك صكًا

ويقول محمود سامى البارودى :

والمح بطرفك ما وحته يد الصبا   فوق الغدير تجد حروف هجاء

الزوجات لماذا؟!

(٢٩) العقد الفريد/ لابن عبد ربه الأندلسى - ط عام ٢٠٠٤ / ج ٦ ص ١١٢- الهيئة العامة لقصور الثقافة. سلسلة الذخائر العدد (١١٦) شرحه ورتب فهارسه لهذه الطبعة أحمد أمين، إبراهيم الإبيارى، عبد السلام هارون، وقدم له د. عبد الحكيم راضى.

(٣٠) حديث النساء / حزين عمر فصل "محرضات على المصائب" ص٤١ - الناشر كتاب الجمهورية دار التحرير للطبع والنشر ط ٢٠٠٥

(٣١) العقد الفريد / لابن عبد ربه الأندلسى - ط ٢٠٠٤ -ج٦ ص ٨٢ - الهيئة العامة لقصور الثقافة - الذخائر

(٣٢) فجر القصة القصيرة / يحيى حقى / الهيئة العامة للكتاب ط ١٩٨٦ .

(٣٣) نفس المرجع السابق .

(٣٤) ذم ألهوى / للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ٥١٠ - ٥٩٧ هجرى / تحقيق مصطفى عبد الواحد /دار الكتب الحديثة لصاحبها توفيق عفيفى - ينشر لأول مرة على نسختى برلين وباريس / ص ٦٤٨- ٦٤٩

افتراءات رجالية

(٣٥) كتاب المجموعة الكاملة لعباس محمود العقاد/ مجلد ٨ سلسلة إسلاميات – دار الثقافة اللبنانى ط أولى ١٩٨٤ ص٣٠ .

(٣٦) ذم النساء – جمال فرحات – الدار العالمية /بيروت ط ١٩٩٣ .

(٣٧) ذم النساء " من التراث العربى " – جمال فرحات / الدار العالمية – بيروت ط١٩٩٣ ص ١٤٤ .

(٣٨) العقد الفريد / لابن عبد ربه الأندلسى / ج٣ من كتاب " كلام العرب" ص ٤٧١ ط ٢٠٠٤ .

(٣٩) العقد الفريد / لابن عبد ربه الأندلسى/ج٣ من " كتاب العرب " باب النوادر والملح ص ٤٨٢ – ط ٢٠٠٤ هيئة قصور الثقافة حققه د/عبد الحكيم راضى.

(٤٠) نفس المرجع السابق ج٣ ص ٤٥٦ .

(٤١) نفس المرجع السابق ج٣ ص ٤٧١ .

(٤٢) العقد الفريد/ لابن عبد ربه ج٣ ص ٤٧٥ .

(٤٣) العقد الفريد/ لابن عبد ربه ج٦ ص ١٢٠ هيئة قصور الثقافة. ط ٢٠٠٤ .

(٤٤) العقد الفريد/ لابن عبد ربه الأندلسى ج٣ ص ٤٧١ من كتاب " كلام العرب " ط ٢٠٠٤ .

(٤٥) الأغانى/ لأبى الفرج الأصفهانى ج١٦ ص ٨٨ /ط١٩٩٣ تحقيق مصطفى السقا.

(٤٦) الأغانى/ للأصفهانى ج٦ ص ٥٢– ٥٣ هيئة الكتاب ط ١٩٩٢ (انظر باقى الأبيات).

(٤٧) نفس المرجع السابق.

(٤٨) العقد الفريد/ لابن عبد ربه الأندلسى ج٦ ص ١١٣– ١١٤ هيئة قصور الثقافة. ط ٢٠٠٤ .

القبح أنواع

(٤٩) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى. ج٦ ، ط ٢٠٠٤ ، ص ١١٣– ١١٤ . هيئة قصور الثقافة.

(٥٠) الأغانى للأصفهانى. ج ١٠، ص١٠، دار الثقافة، بيروت.

(٥١) العقد الفريد. ج ٣، ص ١٦٧ . دار الهلال، بيروت.

(٥٢) ذم النساء (من التراث العربى)، جمال فرحات.ط ١٩٩٢، ص ١٥٤ . الدار العالمية، بيروت.

(٥٣) " الفرزدق " د. ممدوح حقنى، سلسلة نوابغ الفكر العربى (٢). ط ٥، ص ٦٢، ١٩٨٠ . دار المعارف.

(٥٤) الأغانى للأصفهانى. ج ٦، ص ٤ . دار الثقافة، بيروت.

(٥٥) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى. ج ٦ ، ط ,٢٠٠٤ هيئة قصور الثقافة.

(٥٦) الأغانى للأصفهانى. مجلد ١٠، ص ١٠ .

(٥٧) نفس المرجع السابق.

(٥٨) ذم النساء، جمال فرحات.

(٥٩) نفس المرجع السابق.

(٦٠) انظر العقد الفريد ج ٣، ص ١٦٧، دار الهلال، بيروت؛ موسوعة الشعر العربى، ط ٢٠٠٣، المجمع الثقافى بالإمارات العربية المتحدة؛ وكتاب ذم النساء (من التراث العربى)، جمال فرحات، ط ١٩٩٣، الدار العالمية، بيروت.

(٦١) ذم النساء. جمال فرحات. ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٦٢) نفس المرجع السابق. ص ١٤٣ .

(٦٣) نفس المرجع السابق. ص ٣٢ .

(٦٤) الأغانى للأصفهانى. مجلد ٢٠، ص ٣٧ .

(٦٥) الأغانى للأصفهانى. مجلد ١٢، ص ٣٤٠ .

النكد صناعة زوجية

(٦٦) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى جزء٦ طبعة ٢٠٠٤ هيئة قصور الثقافة.

(٦٧) الأغانى للأصفهانى جزء ١٦ ص ١٣٣ طبعة ١٩٩٢ هيئة الكتاب تحقيق مصطفى السقا.

(٦٨) "حديث النساء" حزين عمر طبعة ٢٠٠٥ - كتاب الجمهورية للطبع والنشر ص ٧٤ فصل "الكذب منهن وعليهن".

(٦٩) ديوان" الميلاد غداً" حزين عمر، الناشر الهيئة العامة لقصور الثقافة - بسلسلة أصوات أدبية (١٤٤) ط فبراير ١٩٩٦ ص ١٣٥-١٣٦ قطعة نثرية بعنوان "لحظة" .

(٧٠) ديوان " وهج" حزين عمر/ الناشر مكتبة الأسرة الهيئة العامة للكتاب ط ٢٠٠٠ ص ٤٩ .

(٧١) ديوان " الميلاد غداً" حزين عمر، الناشر الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة أصوات أدبية (١٤٤) ط فبراير ١٩٩٦ .

(٧٢) ديوان "وهج" حزين عمر، الناشر مكتبة الأسرة الهيئة العامة للكتاب ط ٢٠٠٠ ص ٦٩ .

(٧٣)

(*) ديوان " فصل من التاريخ الخاص" حزين عمر - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٩

(*) ديوان "الميلاد غدا" - هيئة قصور الثقافة ١٩٩٦ .

(*) مذكرات فلاح - هيئة الكتاب ١٩٩٩

(*) مع الضاحكين .. مكتب أوزوريس ١٩٩٥

(*) ديوان وهج - مكتبة الأسرة ٢٠٠١ .

(٧٤) " حديث النساء" حزين عمر - كتاب الجمهورية عدد مارس ٢٠٠٥ .

(٧٥) القصيدة "عصفورة وبيت" من ديوان " بيننا شيء ما " تحت الطبع وقد كتبت بتاريخ ٢٠٠٦/٤/٢٨ .

(٧٦) "الحب الأول والصحبة" صمويل بيكت - ترجمة فوزية العشماوى - الناشر المجلس الأعلى للثقافة ط ١٩٩٩ .

(٧٧) " ذم النساء" من التراث العربي- الدار العالمية بيروت ط ١٩٩٣ .

(٧٨) الأغاني - للأصفهاني ج ١٦ ط ١٩٩٣ .. ص ١٢٦- ١٢٧- ط هيئة الكتاب تحقيق مصطفى السقا.

(٧٩) " حديث النساء" حزين عمر ط ٢٠٠٥ كتاب الجمهورية دار التحرير للطبع والنشر ص ٧٦ فصل (الكذب منهن وعليهن).

(*) " راية الخيال" سمير غريب ط ٢ مكتبة الأسرة هيئة الكتاب عام ٢٠٠٠ ص ٨٧ .

(٨٠) العقد الفريد - لابن عبد ربه الأندلسي - ج ٦ ط ٢٠٠٤ هيئة قصور الثقافة ص ١١٤- ١١٥ .

(*) في بعض الأصول : (وهل أنا).

(٨١) العقد الفريد - لابن عبد ربه ج ٦ ط ٢٠٠٤ هيئة قصور الثقافة ص ١٤٠ .

(٨٢) ذم النساء - من التراث العربي إعداد العالمية بيروت ط ١٩٩٣ ص ١٤٥ .

(٨٣) الأغاني - للأصفهاني دار الثقافة بيروت مجلد ٢٣ ص ,٣٧١

(٨٤) موسوعة الشعر العربي ط ٢٠٠٣ - المجمع الثقافي بالإمارات العربية.

(٨٥) معجم (ديوان أشعار النساء في صدر الإسلام) د. ليلى ناظم الجبالي- مكتبة لبنان ط أولى ١٩٩٩ ص ١٣٠ .

(٨٦) نفس المرجع السابق ص ٨٠ .

ناشزات .. خائنات

(٨٧) الأغاني للأصفهاني ج٩ ص ١٢١ - ط ١٩٩٣ - هيئة الكتاب.

(٨٨) العقد الفريد- لابن عبد ربه ج٦ .. ط ٢٠٠٤ - هيئة قصور الثقافة ص ١٢٠ .

(٨٩) الأغاني للأصفهاني مجلد ١٨ ص ٦٨ ط دار الثقافة بيروت.

(٩٠) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ج٣ من كتاب " كلام العرب" ص ٤٧١ هيئة قصور الثقافة ط ٢٠٠٤ حققه د. عبد الحكيم راضي.

(٩١) نفس المصدر السابق ص ٤٧٤ -٤٧٥ .

(٩٢) " ذم النساء" جمال فرحات من التراث العربى الدار العالمية – بيروت ط ١٩٩٢ ص ١٤٨ – ١٤٩ .

(٩٣) نفس المصدر السابق ص ١٤٩ .

(٩٤) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى ج٦ ط ٢٠٠٤ هيئة قصور الثقافة.

(٩٥) نفس المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٩٦) نفس المرجع السابق ص ١٢٠ .

(٩٧) الأغانى للأصفهانى – دار الثقافة بيروت مجلد ٢٢ ص ٣٣٧ .

(٩٨) طوق الحمامة – الإمام جلال الدين السيوطى – تحقيق وتعليق وتقديم مصطفى عاشور– مكتبة القرآن ط ١٩٨٧ ص ٢٨ – ٢٩ .

هجاء بهجاء

(٩٩) كتاب ذم النساء – فى التراث العربى تأليف جمال فرحات، الناشر الدار العالمية بيروت ط ١٩٩٣ ص ١٣٤ .

(١٠٠) كتاب " شعر المرأة المصرية" منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، تأليف د. سهام راشد عثمان – كلية الآداب جامعة أسيوط ط ١٩٩٨ عن دار الثقافة للنشر والتوزيع ص ٣٩٣ .

(١٠١) " حديث النساء" حزين عمر ط ٢٠٠٥ كتاب الجمهورية ص ١٣٨– ١٣٩ –١٤٠ فصل "الحفيدات".

(١٠٢) " أشعار النساء" فى الجاهلية والإسلام د. محمد بدر معبدى ط ١٩٨٦ ص ٨٥ .

(١٠٣) معجم ديوان "أشعار النساء فى صدر الإسلام" د. ليلى محمد ناظم الجبالي– مكتبة لبنان ط أولى١٩٩٩ ص ٢٢ .

(١٠٤) " أشعار النساء " فى الجاهلية والإسلام ط ١٩٨٦ – تأليف د. محمد معبدى – الباب الثانى الفصل الرابع "الهجاء فى صدر الإسلام وبنى أمية" ص ١٣٤– ١٣٨ .

(١٠٥) الأغانى للأصفهانى ج ٩ ط ١٩٩٣ هيئة الكتاب ص ٢٢٩–٢٣٠–٢٣١–٢٣٢ .

(١٠٦) " أشعار النساء " فى الجاهلية والإسلام ط ١٩٨٦ الباب الثانى الفصل الرابع ص ١٣٤–١٣٨ .

(١٠٧) نفس المصدر السابق.

(١٠٨) الأغانى – أبو الفرج الأصفهانى – دار الثقافة بيروت مجلد ٣ ص١٧٧ .

(١٠٩) الأغانى مجلد ١٩ ص ٢٦٥ دار الثقافة بيروت.

(١١٠) ذم النساء – فى التراث العربى، جمال فرحات – الدار العربية بيروت ط ١٩٩٢ ص ١٥٠ .

(١١١) أشعار النساء – فى الجاهلية والإسلام د. محمد معبدى ط ١٩٨٦ ص ٨٣–٨٤

(١١٢) " شعر المرأة المصرية" منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تأليف د. سهام راشد عثمان – كلية الآداب جامعة أسيوط ط ١٩٩٨ عن دار الثقافة للنشر والتوزيع ص ٢٠٢ .

(١١٣) مجلة " المثقف العربى" العدد السابع يوليو(٢٠٠١) تصدر عن منتدى المثقف العربى – القاهرة ص ٢١ .

(١١٤) انظر القصيدة فى مطلع هذا الفصل.

هجاء حلمنتيشى

(١١٥) القصيدتان مخطوطتان للشاعر عزت الطيرى لم تنشرا فى ديوان بعد.

(١١٦) قصيدة مخطوطة للشاعر شوقى أبو ناجى لم تنشر بعد.

(١١٧) مخطوطة للشاعر فريد طه بعنوان " حسى بمشاعرى يا هانم" يقول:

يا وليه اهتمى حبة بمظهرك فى البيت
وغيرى الجلابيه اللى هراها الزيت
والعصبه فُكيها أنا من شكلها مليت
طول النهار فى الغسيل والطبخ والتنفيض
راح فين جمالك يا حلوه اللى ملان تحريض
عاجبك كدا منظرك؟!.. دا يخوف العفاريت
حسى بمشاعرى يا هانم.. واعرفى لك جوز
مش كل ما آجى التيقكى ضاربه لك كام بوز
وإن قلت فيه إيه؟.. دموعك تملا عشرين كوز
خليتى عيشتى ما بين الآه وتنهيده
وكأنى محكوم عليه فى الغم تأبيده
ما تكنش دى خطة سابقه لانتحارى؟.. يجوز
مش شايفه جارتك سماسم كلها شياكه؟
وشعرها ديل حصان فى آخره مساكه
وواقفه زى الغزال والشفة ضحاكه
وجوزها واقف يغازل فيها كله نشاط
أبص اشوفه التقانى عقلى شت وشاط
ما هى ست زيك لكن مش عامله سباكه
أنا نفسى اشوفك فى عينى أجمل الستات
ولابسه متزوقه.. وجميلة الجميلات
خلينى احس انى راجل ولسه له شنبات
يبص لك ينتشى.. ويقول صلاة الزين

والحب يرجع صبى . . نفضل معاه حبيبين

ونعيش فى بيت فيه هَنَا . . كله نبات وبنات

(١١٨) قصيدة الشاعر ياسر قطامش نشرت بجريدة الأخبار الإثنين ٢٩ من ربيع الأول - ١٠ من يونيو ٢٠٠٢ العدد (١٥٦٣٨) السنة ٥٠ .

(١١٩) قصيدة "الخلع" لياسر قطامش نشرت بمجلة (الدار) مجلة ثقافية تصدرها جماعة الصحافة بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة عدد ربيع الأول ١٤٢٣ هجرية - يونيو ٢٠٠٢ ص ٤٧ .

(١٢٠) ديوان " القلب فى ورطة بين ليلى وبطة" الشاعر ياسر قطامش - الدار المصرية اللبنانية ط أولى لعام ٢٠٠٠ القصيدة بعنوان "أصبح الشعر فوق الرفوف مركونا" من المشاغبات الزوجية ص ٤١ .

(١٢١) قصيدة (الكاميرا الخفية) نشرت بمجلة (كاريكاتير) العدد ٢١ سبتمبر ٢٠٠٤ .

(١٢٢) " مع الضاحكين" حزين عمر الهيئة العامة للكتاب مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ ص ٨ طبعة ثانية - الطبعة الأولى مكتب أوزوريس للطبع والنشر ١٩٩٥ .

(١٢٣) القصيدة لمؤلفة الكتاب من مجموعة (على جدار الروح) الصادرة عن جماعة رؤى لعام ٢٠٠٧ .

صدر للكاتبـة:

- أجنحة البوح (مجموعة قصصية مشتركة) سلسلة كتاب الجيل الجديد ٢٠٠٠ .
- للنساء حكايات (مجموعة قصصية) إشراقات جديدة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١ .
- رُبع رجُل (مجموعة قصصية) الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١ .
- كافرة (ديوان شعر) سلسلة كتاب الجيل الجديد ٢٠٠٤ .
- الإنسان أصله شجرة (مجموعة قصصية) الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٥ .
- وجع دافئ (نثر فنى) اتحاد كتاب مصر ٢٠٠٧ .
- على جدار الروح (منمنمات) جماعة رؤى ٢٠٠٧ .
- فى ذاكرتى حكاية - جزء أول - (قصص أطفال) - المركز القومى لثقافة الطفل ٢٠٠٧ .

تحت الطبـع

- رجال غالية (رواية)
- بنات الحاج (رواية)
- الحصان الأسود (مسرحية)
- فى بار الأحلام (مسرحية)
- عائلات ثقافية فى مصر (دراسة).
- كوكب النساء (مسرحية).
- العشق فوق جبل زغوان (رواية).

فهـــــرس

المراجعة اللغوية : **آمال الديب**

الإشراف الفنى : **هشام نوار**

المرأة كل الخير، وكل الشر .. كل الرقة والعذوبة والجمال، وكل الخشونة والجفاف والقبح!! ويبدو أنها خير مطلق بالنسبة للرجل إذا لم تكن زوجته؛ "ففيها يحلو الغزل" ويصدح الشعراء بألحانهم الخالدة.

أما إذا كانت زوجة، فهى ملهمة أيضًا، ولكن إلهام العذاب والنكد والكآبة والإحباط والقبح!!

• هذا هو وجه المرأة: الزوجة لدى الشعراء على مدى تاريخ أدبنا العربى.. إلى درجة أن أى شاعر "زوج" يمدح أو يتغزل فى زوجته سوف يتهم بالغباء والكذب من أقرانه الشعراء قبل غيرهم!!



